بورتريه قطة سوداء

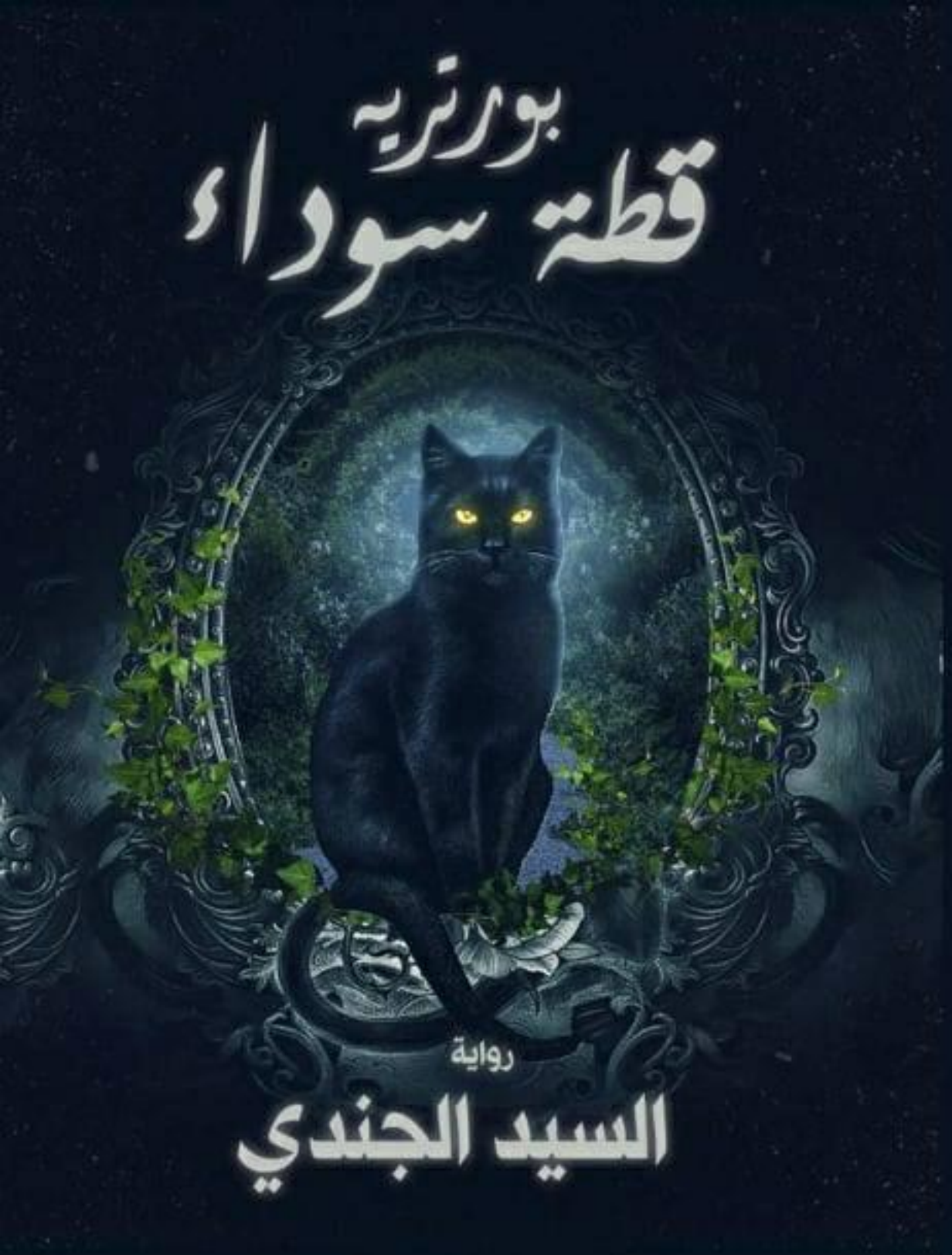

رواية

السيد الجندي

بورتريـــــه قِطـــــة سوداء

عنـوان الكتـاب: بورتريـــه قِطـــة ســـوداء
الموضـــــوع: روايـــــــــــــــة
التـأليـــــف: الســـــــيد الجنـــــــدي
مراجعـة لغويـة: مهـــــــــا الســـــــيد
الإخـراج الفنـيّ: عمـــــرو ســـــالم ســـــواح
تصـميم الغـلاف: فـــــــــارس إيهـــــــاب
رقـــم الإيـــداع: ٢٠١٩/ ٢٧٩٤٩
التـرقيم الـدولي: ٥-١٦٣-٨٣٥-٩٧٧-
الناشر : زحمة كتاب بالتعاون مع اسكرايب للنشر والتوزيع
اسكرايب للنشر والتوزيع :**Facebook Page**
Email:scribe20199@gmail.com
Tel: 00201005079256

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة © لدار
اسكرايب للنشر والتوزيع

ω لا يحق لأي جهة طبع أو نسخ أو بيع هذه المادة بأي شكل من الأشكال ومن يفعل ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية

رواية

بورتريه قِطة سوداء

السيد الجندي

الفصل الأول

في يومٍ من أيام أواخر الخريف، ومع تطاير أوراق الشجر وذرات الرمال في كل مكان توقفت سيارة بوجاتي ڤايرون زرقاء أمام إحدى ڤيلات سرايات المعادي، وخرج منها شابٌ وسيمٌ، أشقر، أزرق العينين، طويل القامة، يرتدي (جاكت) من الجلد لونه أزرق وبنطلون(blue jeans)، خلع نظارته الشمسية وهو يبتسم متجهًا إلى فتاة في العشرينات تقف أمام الڤيلا وحياها بيده قبل أن يتقدم منها قائلًا:

- أهلًا سحر، كيف حالك؟

ردت سحر: بخير يا أستاذ سامح، مرحبًا بك، لقد أعددت لك الڤيلا كما طلبت بالضبط، وجهزت لك كل ما يلزم من أدوات الرسم والألوان التي تستخدمها.

قال سامح: أشكرك شكرًا جزيلًا.

سحر: والآن تفضل معي لمشاهدة الڤيلا من الداخل.

وتقدم الاثنان إلى داخل الڤيلا وأخذ سامح يجول ببصره في كل ركن وبدا عليه السرور مما يرى من بهاء الڤيلا ومحتوياتها، ومضت سحر تشرح له كل شيء في المكان حتى وصلا إلى ركنٍ في الصالة الواسعة؛ حيث كان هناك حاملٌ وضعت عليه لوحة رسم جاهزة (Canvas) مشدودة على برواز خشبي وبجواره أدوات الرسم كاملة من ألوان وخلافه، وخلف الحامل مباشرة كانت شرفة الڤيلا.

قال سامح بعد جولته مع سحر في الڤيلا:

- ڤيلا رائعة.

سحر:

-أرجو أن تستمتع بها يا سيدي.

وغادر الاثنان الڤيلا حيث أخرج سامح بعض الأدوات والأشياء الخاصة به من سيارته بما فيها حقائب كبيرة وعاونته سحر في نقل أشيائه، وبينما هما ينقلان محتويات السيارة وقع بصر سحر على لوحة زيتية جميلة، انبهرت بها وتصورت أنها لأحد الفنانين العالميين الانطباعيين كما هو واضح من طريقة رسمها بأسلوب ال(IMPASTO) تصور مركبًا صغيرًا بشراع أبيض كبير يبدو من بعيد وسط البحر والسحب البيضاء تبدو كجبال من الثلج وسط السماء، فالتفتت إلى سامح الذي بادلها النظرات وكانت نظراته تؤكد لها أن اللوحة من أعماله فقالت:

- أهذا رسمك ؟!

فهز رأسه بعلامة الإيجاب بنعم.

فقالت الفتاة بانبهارٍ:

- إذن اسمح لي يا أستاذ سامح أن أحييك، إنك يا سيدي فنان حقيقي ذو موهبة عالية، لقد ظننتك مجرد هاوٍ مبتدىء فإذا بي أجد نفسي أمام فنان قدير.

- أشكرك يا سحر، على كل هذا المديح، ولكنني بالفعل مبتدىء وهاوٍ؛ ولهذا استأجرت هذه الڤيلا كي أنعي فيها مواهبي بعيدًا عن ضجة العاصمة حتى إذا ما أبدعت شيئًا جديدًا مختلفًا أقمت معرضًا لأعمالي.

عادت سحر تتأمل اللوحة من جديد بانبهارٍ ثم قالت:

- أؤكد لك يا أستاذ سامح أن لوحتك هذه ليست عمل هاوٍ إنها عمل رسام محترف، ولا أبالغ إن قلت فنان عالمي؛ فأنت تعلم أنني بحكم عملي في الڤيلات والشقق المؤجرة لدي خبرة في التحف، واللوحات، والأعمال الفنية، وبحكم خبرتي أرى أنك تستحق العالمية على هذه اللوحة التي تعيد مجد المرحلة الانطباعية في الفن التشكيلي بشكل جديد.

سامح مبتسمًا:

-إلى هذا الحد ؟!

بادلته الابتسام قائلة:

- أتمنى لك كل التوفيق يا سيدي، وثق أنك ستصبح في القريب العاجل فنانًا عالميًا كبيرًا أنا نلت شرف معرفته أولًا.

- أشكرك يا سحر على ذوقك وأسلوبك الراقي.

والآن أتركك يا أستاذ سامح؛ لتبدأ فنك وإذا احتجت لأي شيء ما عليك إلا أن تتصل بي وسأحضر لك فورًا، سأساعدك في كل ما تطلب، فليس كل يومٍ يقابل المرء فنانًا.

وأوصلها سامح حتى الباب مودعًا بعد أن شكرها كثيرًا، ثم عاد ففتح شرفة الڤيلا ووقف أمام حامل الرسم لحظاتٍ مستغرقًا في تفكير عميق؛ كان يفكر في أن يرسم موضوعًا جديدًا مختلفًا في عالم الرسم، وبينما هو غارق في أفكاره سمع نباحًا عاليًا يأتي من أسفل الشرفة فاستغرب جدًا؛ لأنه يعلم أن لا توجد كلاب في الڤيلا، ترك ما في يده ونزل بسرعة إلى حديقة الڤيلا فشاهد كلبًا من كلاب الروت وايلر (Rottweiler) أسود

اللون، تبدو عليه الشراسة، ينظر إليه نظرة مرعبة، وعندما دقق سامح النظر في الكلب رأى نارًا تنبعث من عينيه ففزع كثيرًا وحاول أن يتراجع، ولكنه ظل واقفًا في مكانه يحدِّق في الكلب الشرس الذي كان من الواضح أنه يريد أن ينقض عليه ، تغلب سامح بعد قليلٍ على سكونه وقرر الدخول إلى الڤيلا لإحضار مسدسه للقضاء على هذا الكلب الذي يريد أن يفتك به، رغم إحساسه المتيقن أن هذا الكلب ليس كلبًا عادياً وإنما شيءٌ مرعب، فتحرك بهدوء دون أن يشعر الكلب أنه خائف والكلب ينظر إليه وراح يمشي بظهره في اتجاه مبنى الڤيلا والكلب يتابعه ببصره، حتى إذا ما أصبح أمام الڤيلا استدار بسرعة ليدخل، ولكنه أحس أن الكلب سيهاجمه من الخلف فعاد يستدير لمواجهة الكلب في لمح البصر لكنه عندما استدار لم يجد أي أثر للكلب في الحديقة، لقد اختفى الكلب تمامًا كأنه لم يكن موجودًا أصلًا. دخل سامح الڤيلا وهو في قمة اندهاشه واتجه إلى حامل الرسم ووقف أمامه كما كان وهو يفكر في الكلب الغريب واختفائه الأغرب، وفجأة خطر له أن يكون موضوع لوحته الجديدة شيئًا مرعبًا كما أحس بسبب الكلب ولكنه لا يريد أن يرسم كلبًا وقال لنفسه في مرح: لا نرسم كلبًا بل قطة، ومع خروج الكلمة من فمه بتلقائية ابتسم وأكد على الكلمة قائلًا: نعم قطة سوداءهذا موضوع جدير بالرعب. أثارته الفكرة كثيرًا فبدأ على الفور في رسم بورتريه قطة سوداء حتى انتهى منها بعد ساعة من الرسم ووقف ينظر إليها عن بعد؛ كانت رائعة بحق حتى شعر هو نفسه أنها تكاد تقفز من اللوحة من فرط براعته في الرسم، بدأ الظلام يحل وأحس سامح فجأة بالجوع فقرر إعداد لقمة سريعة، قام بتغطية اللوحة بقطعة

من القماش الأبيض ثم دخل المطبخ وأخذ يعد وجبته السريعة، ثم تناولها داخل المطبخ ولما انتهى غادر متجهًا إلى مكان اللوحة وإذا به يفاجأ بجوار الباب بما جعله يتجمد في موضعه؛ لقد شاهد بجوار الباب قطة قطة سوداء!!!!!

كان موقفًا مرعبًا بكل المقاييس؛ القطة تسلط عينيها المرعبيتن على سامح الذي وقف متجمدًا من فرط الرعب كأنه منوم مغناطيسيًا من عيني القطة، وبدأ يشعر أن الڤيلا بكل محتوياتها تدور به، وظن لوهلة أنه في وهمٍ كبيرٍ ففرك عينيه وعاود النظر من جديد، كانت القطة مازالت واقفة تنظر إليه، وخطر له خاطر سريع؛ مد يده التي كانت قريبة من حامل الرسم ورفع الغطاء عن لوحة القطة التي كان قد رسمها منذ قليل وزاد رعبه وازداد الموقف كله رعبًا عندما نظر إلى اللوحة فلم يجد القطة بها، كانت اللوحة فارغة تمامًا كأنه لم يرسم عليها أي شيء، وترنح سامح في مكانه، ما هذا الذي يحدث له؟! وما تفسير هذا الرعب الذي يعيش فيه الآن؟! أعاد تغطيه اللوحة وهو يرتجف وينظر برعبٍ إلى القطة السوداء التي كانت مازالت واقفة تنظر إليه، ثم اتجه وهو يترنح رعبًا إلى الدور العلوي حيث غرفة نومه وأغلق الباب خلفه وارتمى على السرير في غيبوبة.

*****

استفاق سامح من غيبوبته بعد ٤ ساعات وأخذ يتذكر كل شيء، نهض من سريره واتجه بهدوء إلى الصالة، أخذ يقترب ببطء من اللوحة المغطاة وهو ينظر ناحية الباب دون أن يجد القطة التي كانت بجواره ويفكر: تُرى هل كان وهمًا ما مر به، أو حُلمًا، أو كابوسًا؟ ورفع غطاء اللوحة

دون أن ينظر، كانت يده ترفع الغطاء ورأسه في اتجاه آخر وهو مغمض العينين، ثم نظر بسرعة إلى اللوحة كانت كما هي تمامًا وبها صورة القطة التي رسمها، ولكنه واثقٌ كل الثقة أن اللوحة كانت خالية والقطة غادرت اللوحة ووقفت بجوار الباب، وقرر أن يخرج قليلًا للسهر في أي مكان علّه يخرج من هذا الجو المخيف، غيّر ملابسه وارتدى بالطو من نوع الساتان أزرق اللون، بدا على قوامه الممشوق أنيقًا جدًا، ومنحه مظهرًا جذابًا، ولم ينس أن يأخذ معه بعض أقلام الرسم كالفحم، والرصاص، والباستيل، واسكتش (canson)

ترك سيارته وغادر الڤيلا ماشيًا، ولمح عن بعد أضواء كافيتيريا تتلألأ فتعجب جدًا، أنه لم يلحظ وجود كافيتيريا في هذه الأنحاء، اتجه إلى الكافيتيريا بسرعة كأن قوى خفية تدفعه إليها ولاحظ قلة روادها، لم يكن هناك سوى خمسة من الشباب يجلسون معًا على منضدة واحدة، وبجوارهم منضدة فارغة، فجلس بالقرب منهم وراح يستمع إلى نكاتهم وضحكاتهم، ثم فتح اسكتش الرسم وبدأ يخط خطوطًا على الورقة البيضاء، كانت الموسيقى المنبعثة من الكافيتيريا (Heavy Metal) مألوفة له وإن كان لا يتذكرها لكنها أشعرته بنفس الرعب الغامض الذي أحس به في الڤيلا، وفجأة وجد أحد الشباب يتجه إليه قائلًا: -أهلًا بك، يبدو أنك جديد هنا.

رد سامح :

- نعم، إنه يومي الأول لي.

- نحن نحب أن نتعرف عليك، إننا نؤجر ڤيلا بالقرب من هنا.

- وأنا أيضًا، وإن كانت القيلا التي أجرتها بها أشياء مريبة.

- إذن تفضل واجلس معنا سيسعدنا أن نستمع إليك.

ونهض سامح مع الشاب إلى المنضدة الأخرى وسلّم على مجموعة الشباب ثم جلس ووضع اسكتش الرسم على المنضدة فقال أحدهم :

- هل أنت رسام ؟

-نعم.

-وما هي الموضوعات التي تحب رسمها ؟

- حتى الآن لا شيء محدد، من الممكن أن أرسم الطبيعة، أو الطبيعة الصامتة، أو البشر، والمرة الوحيدة التي قررت فيها أن أرسم شيئًا مختلفًا حدث معي أمر عجيب.

أثارت كلمته الأخيرة انتباههم جميعًا فقال الشاب الذي أحضره والذي عرّف نفسه لسامح باسم سليم :

- احك لنا.

سامح:

- في الحقيقة لا أدري كيف أبدأ؛ إنه شيء من وراء الخيال، وصمت بعد كلمته وراح ينظر إليهم ومرة أخرى أتاه نفس الإحساس الذي أتاه منذ قليل عندما استمع إلى الموسيقى، هؤلاء الشباب يبدون مألوفين بالنسبة له على الرغم من أنه لا يعرفهم، كأنه رسمهم في لوحة من لوحاته ولكنه لا يتذكر متى ولا أين رسمهم.

قال أحدهم يستفسر عن سبب صمته:

- لماذا سكت؟ احك لنا ما حدث.

قال سامح:

- سأحكي لكم علّني أجد منكم تفسيرًا لما حدث معي.

وروى لهم كل شيء منذ أن دخل الثيلا حتى اختفاء القطة السوداء من لوحته وتجسدها خارج اللوحة، فقال شاب منهم: المسألة واضحة جدًا يا صديقي لا تحتاج إلى تفسير؛ أن هذه الثيلا مسكونة.

قال سامح بخوفٍ: إذن سوف أغادرها فورًا.

قال شاب آخر: بالعكس إنه شيء مثير جدًا ومغامرة رائعة.

أسرع أحدهم يهتف:

- يا جماعة، إن حكايته هذه ذكرتني بحكاية حدثت معي في طفولتي.

سامح : وما هي؟

- حدث لي هذا الأمر وأنا في التاسعة من عمري؛ استيقظت ليلًا ودخلت الحمام دون أن أضيء النور وخشيت أن أفيق فلا أتمكن من النوم مرة أخرى، وعندما انتهيت من قضاء حاجتي فوجئت بوجهٍ مرعب ينظر إليّ من الجدار المواجة لي مباشرة، فتنبهت كل حواسي وأخذت أنظر إليه بخوفٍ، ثم اختفى الوجه فجأة كأنه تبخر في الهواء.

سأله سامح :

- وكيف كان يبدو؟

- على ما أذكر كان وجهًا أزرق اللون، وحتى عيناه المخيفتان زرقاء وبياض العين لونه أحمر.

صاح شاب آخر: لقد حدث لي نفس الأمر يا أصدقاء ولكن منذ سنة تقريبًا، كان الجو ممطرًا ولا توجد إشارة في موبايلي وأردت إجراء مكالمة

عاجلة فقررت الذهاب لسنترال قريب، وكان الوقت في ساعة متأخرة من الليل فلمحت وأنا أعبر شبحًا لشخصٍ يعبر الطريق من بعيد وسط الأمطار، وعندما نظرت إلى وجهه وجدته أزرق مخيفًا ذا شعر طويل يصل إلى كتفيه ولما حاولت أن أتأكد من رؤيتي كان قد اختفى تمامًا بلا أي أثر.

قال سليم بسرعة كأنه كان مجهزًا الكلام من قبل:

- أتعرف يا سامح؟ لقد أوحت إليّ هذه الحكايات بفكرة مدهشة.

- أخبرني بها.

- لقد سألتنا منذ قليل عن كيفية مواجهة من في الڤيلا المسكونة أليس كذلك ؟

- أجل.

- ما رأيك أن تواجههم بنفس سلاحهم، سلاح الخوف والرعب وكأنك تعرفهم وتعرف ألاعيبهم .

- فكرة مدهشة بالفعل ولكن كيف ؟

- سأخبرك، ما رأيك أن تأخذ المواصفات التي قالها الأصدقاء عن وصف الشكل الذي ظهر لهم وتقوم برسمها في لوحة وتضعها في الڤيلا، فإن كانت المواصفات التي سترسمها لواحد من الساكنين في الڤيلا الغامضة فأنت بذلك تؤكد لهم أنك متصل بالعالم السفلي مثلهم، وبهذا توصل لهم رسالة أنك لا تخاف منهم وتكون اللوحة لك بمثابة تميمة أو تعويذة لحمايتك منهم.

- إنها فكرة رائعة جدًا، وستجعلني أدخل في مغامرة، وأنا أعشق المغامرات.

سأله واحد منهم: ألست خائفًا؟

رد سامح بحماس: بالعكس، لقد أعجبتني الفكرة وشجعتني وسأبدأ تنفيذها فورًا .

الفصل الثاني

عندما عاد سامح إلى الڤيلا كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل وكان هو متحمسًا جدًا لرسم الوجه الأزرق الذي وصفته مجموعة الشباب، وهكذا قام بتجهيز لوحة وبدأ يكون الوصف في عقله ويرسم، رسم كل تفاصيل الوجه ذي اللون الأزرق، والعينين الزرقاوين، والشعر الطويل الذي يصل الى الكتفين، ولم يكتف بذلك؛ وجد نفسه يبدع بورتريه متكاملًا لهذا الوجه حتى شعر هو نفسه أن صاحبه لابد أنه ينتمي بالفعل للعالم السفلي، ووقف يتأملها طويلًا كعادته كلما انهى لوحة تدهشه هو شخصيًا لما يتفجر منها من إبداع، وشعور ما بداخله يؤكد له أن هذا الوجه بالذات صاحبه موجود بالفعل في هذه الڤيلا، فهل هو صادق في هذا الشعور ؟! ويا تُرى ما هو رد فعل من يسكنون الڤيلا بعد رسمها؟ كان سامح يريد أن يعرف بسرعة ولكن شيئًا لم يحدث، كان كل شيء في الڤيلا وخارجها هادئًا تمامًا، واتجه عندئذ إلى غرفة نومه بعد فترة من مراقبة لوحة الوجه الأزرق دون جدوى، وراح في سبات عميق، ولما استيقظ صباحًا كانت الساعة العاشرة فقام بتجهيز إفطاره وتناوله سريعًا كالمعتاد، فهو يأكل دائمًا بسرعة كأن أحدًا يجري وراءه كما يقولون، ثم راح يتجول في الڤيلا بشكل عشوائي، وفجأة وبينما هو يتجول في أرجاء الڤيلا حدث ما

لم يكن يتوقعه، كان يمر في جولته على مكان اللوحة ونظر وهو لا يبالي ففوجيء باختفاء الوجه الأزرق من اللوحة، وبقيت اللوحة فارغة تمامًا بلا قطرة لون، إذن فقد جاء رد الفعل سريعًا جدًا من ساكني الڤيلا الغامضة، وشعر سامح بغيظ شديد؛ إنهم يسخرون منه، ولكنه اندهش هذه المرة أكثر لماذا لم يظهر الوجه أو صاحبه خارج اللوحة كما حدث مع القطة السوداء؟ لماذا اختفى فقط؟ وهل سيظهر؟ وأصبح الأمر لسامح نوعًا من التحدي، لا يمكن أن يستسلم أبدًا لهذا العبث الشيطاني، لابد أن يمارس حياته بشكل طبيعي ويمارس هوايته التي يعشقها وفيها موهبته، إنهم يريدون إبعاده عن فنه وهو لن يسمح بهذا أبدًا، وابتسم سامح في اطمئنانٍ وثقة، ومع ابتسامته لمعت في ذهنه فكرة النزول إلى حمام السباحة الجميل الموجود في حديقة الڤيلا، وهكذا راح يعد نفسه؛ وارتدى المايوه الخاص بالسباحة التي تعتبر هوايته الثانية بعد الرسم ونزل بكل ثقة إلى الحديقة وهو يصفر بفمه المقطع الشهير من سمفونية بيتهوفن التاسعة، واتجه مباشرة إلى حمام السباحة ووقف على لوح القفز ومد ذراعيه للأمام استعدادًا للقفز في المياه و .....

وشاهد على صفحة المياه انعكاس وجهٍ إنه هو؛ الوجه الأزرق الذي رسمه، منعكسًا على صفحة مياه حمام السباحة ينظر إليه، واختل توازن سامح من فرط المفاجأة والرعب وسقط في مياه حمام السباحة بشكل ٍعشوائي، وأحس بخدرٍ في كل جسمه وبدا أنه سيغرق مع الدوار الذي شمله تمامًا، وبينما هو على هذا النحو سمع صراخًا يهتف باسمه

وشاهد شبحًا غامضًا يقفز خلفه في حمام السباحة، ثم راح جسده يغوص في المياه أكثر وأكثر وهو يسقط في غيبوبة.

استرد سامح وعيه ببطْء وبدأ يدرك ما حوله، كان ممددًا على سريره في غرفة نومه بالڤيلا، مرتديًا إحدى ملابسه الرياضية التي يستخدمها في التمارين، وأمامه كانت سحر المسئولة عن تأجير الڤيلا تجلس على كرسي تنظر إليه بلهفة وهو يستفيق تدريجيًا، ولم يكد بصره يقع عليها حتى هتف:

- سحر ؟ ما الذي حدث ؟

- سلامتك يا أستاذ سامح، أنا سعيدة جدًا أنك بخير الآن.

نهض من سريره بهدوء واقترب منها قائلًا: - أخبريني ما الذي حدث ؟ ابتسمت قائلة :- لقد صادف دخولي الحديقة مع وجودك في حمام السباحة في حالة غرق، ولكنني قفزت خلفك واستطعت إنقاذك في الوقت المناسب، لم أكن أعلم أنك لا تجيد السباحة.

- إنني أجيدها بالتأكيد .

- إذن فسر لي ماذا حدث ؟

وأخذ سامح يفكر سريعًا هل يخبرها بما حدث ؟ هل يخبرها أنه رأى انعكاس الوجه الأزرق الذي رسمه على صفحة مياه حمام السباحة؟ أن هذا بالتالي سيضطره إلى أن يروي لها كل شيء منذ البداية، ولكن هل تصدقه ؟ أم تحسبه مجنونًا؟ أو ربما يثير مخاوفها، إذن لا داع لإخبارها.

قال بعد هذا التفكير:

- لا يوجد ما يدعو للتفسير، كل ما هنالك أنني كنت شارد الذهن في بعض الموضوعات الفنية فإذا بي أجد توازني يختل.

- آه من إلهام الفنانين هذا .
- بالمناسبة ما الذي جاء بكِ إلى هنا ؟
- لقد فكرت أن أمر عليك فربما تكون في حاجة للمساعدة.

ولاحظ سامح نظرات الإعجاب الشديد في عينيها فقال :

- أشكركِ كثيرًا يا سحر، لقد جئتِ في الوقت المناسب أنا بالفعل في حاجة لمساعدتك، ولكن أخبريني أولًا مَن الذي قام بإلباسي هذه الملابس؟ أنا كنت بالمايوه .

أحنت سحر رأسها في خجلٍ ناظرة للأرض فضحك سامح وقال:

- لا بأس.

وعادت تنظر إليه بإعجابٍ وقالت:

- أخبرني، هل رسمت شيئًا ؟
- هذا ما أريد منك أن تساعديني فيه .
- كيف ؟
- ما رأيكِ أن تكوني (موديل)؟

كادت سحر تقفز من شدة السرور الذي غمرها ولكنها سيطرت على نفسها، وإن راح السرور يقفز من كل قطعة فيها وقالت بابتسامة كبيرة:

- هل تتحدث جديًا؟
- بمنتهى الجد، أنا لا أمزح فيما يتعلق بعملي.

- إن هذا يسعدني جدًا، إنه شرف لي أن أعمل معك، لا أدري كيف أشكرك.

- بل أنا الذي أشكرك من كل قلبي على موافقتك، إنني أجد فيكِ نموذجًا مثاليًا للجمال.

- كلماتك هذه كثيرة عليّ يا أستاذ سامح.

- بالعكس إن كلماتي كلها وأعمالي الفنية كلها لا تكفي لوصف جمالك يا سحر.

وصمتت الفتاة واحمر وجهها خجلًا، ثم قالت وهي تنظر في عينيه الزرقاوين الجميلتين

- ومتى نبدأ العمل؟

- من الآن إن أحببتِ .

نظرت في ساعة يدها ثم قالت:

- لدي بعض الأعمال سأنتهي منها ثم أحضر إليك فورًا لنبدأ.

- حسنًا سأكون في انتظارك .

ووضع يديه على كتفيها مستأنفًا:

- لقد أنقذتِ حياتي مرتين، مرة من الغرق، ومرة بموافقتك على أن تساعديني في عملي، ثقي أني سوف أظل مدينًا لكِ .

وودعته والدنيا لا تتسع لفرحتها .

*****

الفصل الثالث

عندما عادت سحر إلى الڤيلا استقبلها سامح بترحاب شديد وعاملها كأميرة جميلة، وكانت هي تشعر أنها تدخل عالمًا ساحرًا ليس له مثيل؛ منذ أن تعرفت بسامح وأيقنت من موهبته غير العادية وخاصة بعد أن طلب منها أن تكون (موديل) فجعلها هذا في رقة الملائكة، وكان أول ما لفت نظرها في الڤيلا هو ولع سامح الشديد بكل ما يحمل اللون الأزرق؛ كانت الڤيلا أمام عينيها تسبح في هذا اللون كأنها تسبح في بحر عميق، وجدت تحفًا كثيرة من الكريستال باللون الأزرق، وعلى الجدران لوحات لبيكاسو في المرحلة الزرقاء، حتى سجاجيد الأرض كانت زرقاء، وإضاءة الڤيلا باللون الأزرق الخفيف، والشموع الطويلة التي على السفرة أيضًا باللون الأزرق وسامح نفسه كان يرتدي بدلة أنيقة زرقاء، وربطة عنق من نفس اللون، وهنا تذكرت أن سيارته كذلك لونها أزرق فالتفتت إليه بعد أن تأملت مهرجان اللون الأزرق هذا وقالت:

- هل تحب اللون الأزرق إلى هذا الحد ؟

ابتسم سامح ابتسامته الجميلة الجذابة وأشار بيده اليمنى إلى ذراعه اليسرى علامة سريان الدم في العروق وقال :

- إنه في دمي.

وفتحت سحر حقيبتها مخرجة منها أسطوانة فونوجراف وناولتها لسامح الذي تناولها منها مندهشًا قبل أن يقول:

كيف عرفتِ أنني أحب هذا النوع من الأسطوانات القديمة ؟

- لقد شاهدت بين أشيائك جرامافون قديم فأدركت أنك تحب هذا النوع.

-أشكرك جدًا يا سحر، على هذه الهدية الجميلة إنها لفتة رائعة منكِ.

وراح يقلب في الأسطوانة فلم يجد عليها أي كتابة تشير إلى اسمها فالتفت إلى سحر قائلًا:

-لمن هذا العمل ؟

- لتارتيني.

وضع سامح الأسطوانة في الجرامافون وشغلها وراح يستمع إلى الموسيقى الجميلة التى انبعثت في المكان، والتي زادت الحالة فتنة ورومانسية، وفجأة أمسك سحر من يدها برقة وراحا يرقصان على أنغام الموسيقى الجميلة، وبدت بين يديه فراشة حينًا وملاكًا حينًا آخر، وقال لها وهما يرقصان:

-ما أجمل هذه الموسيقى، إنني لم أسمع أجمل منها من قبل.

-يقولون أن سر جمالها كونها معزوفة من عمل الشيطان.

- حقًا ؟ هذا غريب جدًا.

- إن اسمها Devil's Trill هزة الشيطان، وقال تارتيني أنه حلم بالشيطان يعزفها له.

لم يعلق سامح وإن بدا مندهشًا جدًا من هذا الأمر وأحس أن الموسيقى تسحره وأنها بالفعل ليست عملًا بشريًا، وبعد حوالي ساعة من الحديث والسمر قال سامح :

- والآن لنبدأ العمل .

وأخذ سامح يوضح لها الوضع الذي يجب أن تتخذه لكي يرسمها وقالت هي متسائلة:

- كم مرة تحتاج لإنهاء اللوحة ؟

- سوف أنهيها في ساعة واحدة.

– مستحيل.

- سترين بنفسك.

ومضى الوقت بسرعة وسامح يرسم وسحر تتحدث معه حتى انتهت اللوحة في ساعة واحدة كما قدر سامح، وتراجع للوراء كعادته ينظر إلى ما أبدعت يداه بانبهار، وحاولت سحر النظر إلى اللوحة لكنه أشار إليها بيده أن تبقى في مكانها، وبعد أن أشبع عينيه من اللوحة جذبها برفق من يدها، ووضع يديه على عينيها من الخلف وهو يتقدم بها ناحية اللوحة، ثم أزال يديه، ونظرت سحر إلى اللوحة واتسعت عيناها وفمها بانبهار ورددت شفتيها:

- مستحيل.. إنها.. إنك .....

وقطعت عبارتها وهي تنظر إليه وعادت تقول:

- إنك معجزة حقيقية .

- بل جمالك هو المعجزة يا سحر.

-إنها تحفة بكل المقاييس إنها ما يعجز عنه البشر.

وبينما أخذ هو يرتوي أكثر من جمال اللوحة، أخذت هي ترتوي من جمال وجهه الوسيم، ثم قالت:

- لا أصدق أنك مازلت فنانًا مغمورًا حتى الآن، إن هذا الإبداع لابد أن يعرفه العالم أجمع.

أمسك سامح اللوحة بين يديه وبدأ يدور بها في المكان كأنه يرقص معها فقالت سحر:

- لك الحق أن تفخر بها وبنفسك إلى هذه الدرجة، إن قدرات البشر الإبداعية في اعتقادي لم تصل بعد إلى هذا الحد.

وفجأة جذبت اللوحة من بين يديه في مرح طفولي وراحت تبعدها عنه وتجري بعيدًا وهي تخبئها خلف ظهرها، وهو يشاركها مرحها الطفولي فيجري خلفها محاولًا استعادة اللوحة حتى قالت ضاحكة:

- لن تحصل عليها، لقد صارت ملكي منذ الآن.

- بكل سرور.

- هل أنت جاد ؟ هل حقًا يمكن أن تفرط في شيء بهذا الإبداع ؟ فكر جيدًا، قد لا تتمكن من رسمها مرة أخرى.

- إن كل إنسان أرسمه، إنما أرسم أعماقه وأبعاده وأغوص في كل تفاصيل حياته؛ فالصورة بحد ذاتها تسجيل للحظة انطباعية ذاتية عن صاحبها بكل ذكرياته، وتفاصيله الداخلية، ومشاعره، وأيضًا إحساسه الداخلي الخاص أثناء الرسم، وهذا الإحساس الخاص المصاحب لعملية الرسم والذي يكون وليد اللحظة يعتبر كبصمة لا تتكرر، وأنا أحب تسجيل هذه البصمات.

وصمت قليلًا وهو يحتويها بنظراته ثم واصل حديثه قائلًا:

- إن حياة كل فرد فينا عبارة عن صور متلاحقة منذ مولده وحتى مماته، صور لأفراحه، وصور لأحزانه، صور لحبه، وصور لكرهه، صور لنجاحاته، وصورلإحباطاته وفشله، صورلآثامه ونزواته، وصور لاعترافاته وتوبته، إن حياة الصور هي حياتنا أجمعين، وقانونها هو الذي يحكمنا ما دمنا نمتلك أعينًا ترى وتظل تلتقط الصور للأبد مثل الكاميرا .

قالت ميهورة:

- ما كل هذه الفلسفة؟ أنت فنان وفيلسوف أيضًا ؟

- ميرسي يا سحر، وعلى الرغم من إبداع اللوحة على هذا النحو، هناك إبداع أعظم.

- ما هو ؟

- أن أرسم الصورة من ذاكرتي الخاصة هذا هو الإبداع الحقيقي.

- أنت عبقري لم أرَ له مثيلًا طوال حياتي ولا أعتقد أنني سأرى عبقريًا مثلك ما حييت.

- أشكرك وأحييك على تقديرك لشخصي المتواضع ولفني .

- إذن سأخذ اللوحة وأنت ترسمني من الذاكرة أليس كذلك ؟

- لا، فهناك مستوى أعلى من الإبداع.

-أخبرني.

-أن أفجر قدراتي الإبداعية التي نمت فجأة على يديك وبفضلك في رسم عمل تخيلي.

- ما أعظمك! إنني متحمسة جدًا لهذا العمل.

قالتها وهي تنظر إلى هذا الكنز الإبداعي الذي بين يديها وتبتسم .

وفجأة زالت ابتسامتها وارتسم الذهول على وجهها وهي تحملق في اللوحة، فأسرع سامح يقول بخوفٍ:

- هل حدث شيء؟

ردت وهي مندهشة:

- خُيل إليّ أن الفم في اللوحة يتحرك.

ودق قلب سامح بسرعة مخيفة وشحب وجهه، وعادت سحر تقول وهي تبتسم في مرح:

- يبدو أنني من كثرة انبهاري باللوحة تخيلت أنها حية، إنها بالفعل تكاد تقفز من اللوحة.

وأصابت الحيرة سامح، تُرى ماذا يفعل ؟ يبدو أن اللوحة بها نفس العبث الشيطاني الذي حدث مع كل لوحة رسمها، وإذا أخذت سحر اللوحة فقد يحدث لها مكروه، وفي نفس الوقت لا يقدر أن يطلب منها تركها بعد أن أعطاها إياها، إذن كيف يخرج من هذا المأزق؟ وخطرت له فكرة رائعة تنقذ الموقف فقال لسحر:

- هل من الممكن أن أطلب منك طلبًا صغيرًا.

- أنت تأمرني وأنا أنفذ أيها المبدع الكبير.

- لقد أخبرتك أنني أريد أن أفجر موهبتي التي نمت فجأة معكِ، في بورتريه تخيلي، وأنتِ الآن ستتركيني طبعًا وتغادرين فهذا أمر طبيعي، ولكنك ملهمتي الوحيدة .

سحر وهي في قمة السعادة :

- أنا ؟ أنا ملهمتك ؟ هذا كثير جدًا .

- والفنان كما تعلمين يريد ملهمته أن تكون بجواره دائمًا في كل لحظة، وأنا لا أستطيع أن أجعلك معي في كل لحظة؛ لذا سوف أطلب منك أن تتركي لوحة صورتك حتى أستمد منها الإلهام في هذه المرحلة ثم تستردينها عما قريب.

كانت فكرة منطقية جدًا ومقنعة، وعلى الفور قالت وهي تمد إليه يدها باللوحة:

- لا بأس، ها هي اللوحة .

-أشكرك كثيرًا يا سحر، أعدك أن أعيدها إليكِ في أقرب وقت.

- لا، لا، خذ راحتك يا أستاذ سامح، إن ما يهمني الآن هو فنك، إنني في غاية السعادة لأنني أصبح لي دورٌ في مسيرتك الإبداعية إنه شرف عظيم لي، لقد كنت أبحث دائمًا عن دور لي في الحياة حتى وجدته معك، شكرًا لك يا سيدي من كل قلبي.

وأسرعت تلتقط حقيبتها ثم قالت:

- متى نلتقى في أعمال أخرى ؟

- كلما يكون لديكِ وقت فراغ مثل اليوم تعالي أنا أرحب بكِ في أي وقت، لقد أصبحنا شركاء في عمل واحد.

- أشكرك يا أستاذ سامح.

نظر في عينيها وهو يبتسم واحدة من ابتساماته الجميلة وقال:

- سامح فقط، لا داع لكلمة أستاذ، وإن أردنا الإنصاف فإنني أنا الذي أتعلم منك كل معاني الجمال.

ابتسمت سحر في خجل جعلها تبدو شديدة الفتنة والجاذبية وهي تقول:

- حسنًا، يا سامح.

ومدت يدها تصافحه ثم غادرت الفيلا.

*****

الفصل الرابع

بعد أن ودع سامح سحر، أمسك اللوحة التي رسمها بها وأخذ يفحصها جيدًا بين يديه، ثم وضعها على حامل الرسم وتراجع للوراء متأملًا فيها طويلًا ولكن لم يكن هناك شيء غير عادي فيها باستثناء أنها تختلف عن مراحل رسمه السابق، أي أنها درجة أعلى من درجات إبداعه الفني تفجرت فجأة، وفكر سامح أن سحر ربما تخيلت فعلًا أن اللوحة تتحرك ومع تفكيره هذا قرر أن ينسى الأمر، ووجد نفسه فجأة يتذكر لوحة القطة السوداء فاقترب من الركن الذي خصص فيه وضع لوحاته المنتهية وأخذ يقلب في اللوحات حتى وصلت يده إلى لوحة القطة ونظر فيها مذهولًا؛ كانت القطة السوداء تقف في وضع مختلف داخل اللوحة، غير الوضع الذي رسمها به، لقد رسم القطة السوداء واقفة، وجسدها في وضع جانبي، ورأسها ناحية يسار اللوحة، ووجهها ينظر للأمام، أما الآن فوضع القطة في اللوحة أصبح أن القطة في الوضع الأمامي بجسدها ورأسها، وارتبك سامح مذعورًا، وقلب اللوحة على ظهرها وأسرع يلقيها من بين يديه تحت أحد المقاعد.

مشى سامح متثاقلًا والأفكار تتدفق بشدة في عقله وهو يصعد السُّلم المؤدي إلى غرفة نومه، كانت الأفكار ممزوجة بالرعب والحيرة، وأخذ يحلل الموقف أن الأمر يبدو له كما لو أن القطة السوداء تتخذ من لوحته مسكنًا تدخل بهيئة وتخرج بهيئة، وأحيانًا تتجسد خارج اللوحة كما رآها، فما معنى هذا؟ هل هي قطة شبحية؟ أم شبح متجسد في صورة قطة؟ ولماذا في

لوحته بالذات؟ هل في اللوحات التي يرسمها شيء ما؟ هل وضع أحدٌ تعويذة سحرية داخل الڤيلا تتفاعل مع اللوحات والرسم مثلًا؟ إن في الأمر سرٌ خطير وهو يتمنى أن يكشفه، ولكن كثرة التفكير في هذا الأمر قد يلهيه عن فنه، فلماذا هو مازال متمسكًا بالبقاء في هذه الڤيلا؟ هل هو حب المغامرة؟ هل يستهويه ما يحدث من غموض يثير الخيال؟ ولكن الأمر من وراء الخيال.

وتمدد على سريره دون أن يغير ملابسه أو يخلع حذاءه وأخذ يراجع الأمر في عقله منذ أن دخل الڤيلا حتى اللحظة الحالية، وبينما هو على هذا الحال جاءه صوت مواء فقفز من سريره مذعورًا وهو يتلفت حوله فلم يجد شيئًا، وعاد المواء مرة أخرى بعد فترة صمت، فأدرك سامح أن الصوت صادر من أسفل حيث الصالة، ففتح الباب بهدوء وتسلل على أطراف أصابعه نازلًا السُلم وهو ينظر في خوف إلى الصالة ولم يكد ينهي درجة السُلم الأخيرة حتى شاهد القطة السوداء أسفل المقعد الذي رمى اللوحة تحته، فانطلق يجري على السُلم حتى وصل إلى غرفته وأغلق الباب بالمفتاح وراحت أنفاسه تتسارع وهو يفكر، هل يستسلم لمحاولات إرعابه المستمرة هذه؟ هل يهرب من الڤيلا؟ وارتفع صوت القطة مجددًا فانتفض جسده في ذعرٍ وهو يشعر أن القطة تحاصره فصرخ بصوت عالٍ:

- ماذا تريدين مني ؟

وعاد المواء يرتفع أعلى فصرخ ثانية :

- ابتعدي عني.

وتواصل المواء بشكل أعلى وأعلى وبطريقة مفزعة، ووجد سامح نفسه يستجمع قوى داخلية في جسده، ورفع ذراعيه عاليًا وهو يضم قبضته كأنه سيدخل في صراع عنيف مع خصم قوي وأخذ يقول: أنا لست خائفًا.

والمواء يرتفع أكثر وأكثر.

- أنا لست خائفًا .

والمواء يستمر بنفس النغمة المفزعة، وأغمض عينيه وهو مازال يردد الجملة:

- أنا لست خائفًا.

واختفى الصوت بعد فترة وساد الهدوء التام في الڤيلا.

استيقظ سامح في اليوم التالي على صوت رنين جرس التليفون فأسرع يجيب: آلو.

جاءه صوت سحر الجميل:

- مساء الخير، هل أيقظتك من النوم ؟

نهض سامح من السرير وحسّن أداءه الصوتي قائلًا:

- أحسنتِ أن أيقظتني؛ فأنا معتاد على الاستيقاظ المبكر، ولكن هذه المرة غلبني النوم ، كم الساعة الآن ؟

- إنها الثانية بعد الظهر.

- ياه، لقد نمت كثيرًا، المهم كيف حالك ؟

- بخير، وأنت كيف حالك ؟

- بخير.

- كنت أريد أن أخبرك أن لدي وقت فراغ الآن وسوف آتي إليك بعد قليل.

- أشكرك جدًا، تشرفيني بالتأكيد، سوف أنتظرك.

- حسنًا مع السلامة.

- مع السلامة .

وبعد أن أنهى المكالمة تذكر القطة السوداء فنزل السلم بهدوء وهو ينظر إلى أسفل، ونظر أسفل المقعد فشاهد لوحة القطة السوداء مقلوبة كما تركها أمس، وقرر أن يفحص لوحة سحر فاتجه ناحية حامل الرسم حيث كان قد تركها هناك وأخذ ينظر إليها بتمعنٍ، ثم أمسكها بين يديه واتسعت عيناه ذهولًا وخوفًا؛ كانت لوحة سحر كما هي فيما عدا تفصيل واحد، لقد كانت ترتدي زيًا مختلفًا غير الزي الذي رسمه سامح، والذي كانت ترتديه سحر بالأمس .

*****

استقبل سامح سحر بلهفةٍ قائلًا :

- أهلًا سحر، يسعدني قدومك.

وقبل أن تنطق سحر بكلمة وقع بصر سامح على زيها الذي ترتديه فدق قلبه بعنف؛ إنه نفس الزي الذي شاهده في اللوحة منذ قليل، فشعر برعبٍ شديد وأسرع يقول لها:

- مارأيك ِأن نذهب إلى أحد المطاعم ؟

وافقت سحر على الفور وغادر كلاهما الڤيلا حيث ركبا سيارة سامح، قالت سحر:

- سيارة رائعة.

- لقد اشتريتها عندما كنت في أمريكا منذ عامٍ، ووضعت بها كل ما أملك، أنا لست غنيًا كما تتصورين، أنا من ذلك النوع البوهيمي وأعيش على ما أبيعه من لوحات فأشتري به ما أريد وليس لي دخل آخر.

- أنت غني بعقلك وبفنك وإبداعك وهذا هو الأهم، وثق أن فنك هذا قد يأتي إليك بالغنى المادي.

- لا أدري كيف أشكرك على تشجيعك المستمر لي.

وأخذ ينظر إلى ثوبها ويتذكر اللوحة ويفكر؛ تُرى هل لسحر علاقة بما يحدث له من عبث في الڤيلا؟ وهل هي الممهدة لوضعه في هذه الڤيلا أي وضعه في المصيدة؟هل هو ضحية مؤامرة من نوعٍ ما ؟ مؤامرة هدفها إرعابه لغرض ما؟ ولكن لمصلحة مَن؟هل تصور أحد أنه من أصحاب الثراء؛ لأنه يركب هذه السيارة ويؤجر هذه الڤيلا؟ وهل من المعقول أن تكون سحر طرفًا في هذه المؤامرة؟ ولكن هذا مستحيل؛ إنه كفنان تشكيلي يستطيع سَبْر أغوار الأشخاص الذين يحتك بهم في حياته حتى لقد أصبح يحسد نفسه على هذه الموهبة، ومن خبرته يدرك أن سحر فتاة طيبة رقيقة ولا يمكن أن تتورط في أي أعمال شريرة، ولكن هذا لا يمنع من أن تفكيره قاده إلى وجود مؤامرة بالفعل لإرعابه من قِبل عصابة ما، وقد يكون هناك مَن يستبدل لوحاته بلوحاتٍ مقلدة بهدف إيهامه أن الڤيلا مسكونة، ووصلا

إلى المطعم ودخلا سويًا وبعد أن جلسا وطلبا ما يرغبان في تناوله لاحظت سحر عليه شرود الذهن فقالت:

- ماذا بك يا سامح ؟

محاولًا إخفاء مشاعره:

- لا شيء.

- تبدو مضطربًا.

فقال مبتسمًا:

- أنا بخير أؤكد لكِ.

- إذن ما الذي يشغلك ؟

- أنتِ.

- أنا ؟

- نعم ألستِ ملهمتي؟

ابتسمت سحر ونظرت إلى الأرض في شيء من الخجل، ثم قالت:

- بالمناسبة، سوف أسافر في زيارة إلى أقاربي في الإسكندرية وسأقضي هناك أسبوعًا، أنا في غاية الأسف .

-لا تأسفي، سوف نستأنف عملنا بعد عودتك سالمة من السفر.

- أرجو أن تفاجئني بعملٍ جديد عند عودتي سيسعدني ذلك كثيرًا.

- أعدك بذلك.

ومضى الوقت بهما في المطعم، وسامح يفكر كثيرًا في ثوبها الذي تغير في اللوحة وينظر في عينيها الممتلئتين بسحر جمالي يمتزج بالغموض المثير.

عادت سحر مع سامح إلى الڤيلا بعد إصراره أن تأتي معه كي يمنحها تذكارًا قبل أن تسافر، قدم لها تحفة فنية مصنوعة من الزجاج باللون الأزرق للفنان العالمي ديل شيهيلي (dale chihuly) انبهرت بها جدًا، وقالت:

-إنني أعجز عن وصف سعادتي، أنت إنسان غير عادي .

- لقد أحضرتها من أمريكا وكنت أشعر دائمًا أنني سوف أهديها لواحدة حتى قابلتك وأدركت أنها أنتِ، لقد كانت تنتظرك كي تصبح ملكك.

- يالك من إنسان عظيم، إنك تبهرني في كل لحظة أعرفك فيها.

- هل تعلمي؟ لقد كانت هذه التحفة مصدر إلهامي الفني في السابق حتى رأيتك فأصبحتِ أنتِ الملهمة بلا منافس، ومعكِ وجدت موهبتي الحقيقية التي كنت أبحث عنها. محاولة الرد :

- سامح . . أنا .....

لاحقها قائلًا:

- أنا أشعربكِ وبما في داخلكِ يا سحر وأقرأ كل ما في أعماقكِ من عينيكِ، أحيانًا تقف الكلمات عائقًا بيننا وبين التعبير عن مشاعرنا، كل ما أرجوه منك أن لا تتغيبي عني كثيرًا فوجودكِ بجانبي له دور كبير في حياتي، إني أعتز بك جدًا وسوف أتمسك بك بكل كياني.

- وأنا أيضًا أعتز بك وأعتبرك مثلًا أعلى لي.

- أشكرك يا سحر، والآن هيا بنا كي أوصلك بالسيارة.

- لا تنس وعدك لي، أريدك ألا تتوقف عن الإبداع حتى عودتي اتفقنا؟

- اتفقنا.

*****

الفصل الخامس

عاد سامح إلى الڤيلا بعد أن أوصل سحر وجلس يفكر، لقد اعتاد على وجودها في حياته بعد أن ألقت بسحرها وفتنتها وجاذبيتها عليه، وبعد أن أصبحت ملهمته وداعمة له ومفجرة لموهبته الحقيقية، وبعد أن أنقذت حياته، والآن ابتعدت عنه ولن يراها إلا بعد أسبوع لكنه سوف يتصل بها يوميًا فهل هذا يكفي؟ كلا بالطبع، فإن سحرها لن يعمل إلا وهي أمامه، والتفت وهو جالس إلى لوحتها التي رسمها تُرى هل تكفيه كملهمة مؤقتة؟ ولكن يا إلهي!! ما هذا ؟ لقد تغير زيها في اللوحة مرة أخرى، وقفز سامح من مقعده واتجه إلى اللوحة في حذرٍ لقد أصبح لون الزي الذي ترتديه سحر في اللوحة أسود كأنه ملابس حداد وصاح سامح: مستحيل حتى ملامح سحر في اللوحة انقلبت من السرور إلى الحزن ما معنى هذا ؟هل أصبحت لوحاته تتنبأ بأمورٍ سوف تحدث؟ لقد تنبأت اللوحة سابقًا بما سوف ترتديه سحر وهي قادمة إليه وصدق هذا التنبؤ بالفعل، ولم يمض وقت طويل حتى أظهرت اللوحة هذا الزي الجنائزي، وفكر سامح سريعا، تُرى هل يعني هذا أن أحدًا من أقرباء سحر الذين تزورهم في الإسكندرية سوف يموت؟

وأخذ سامح يدور في المكان بشكلٍ عشوائي والقلق والخوف يلتهمانه التهامًا وهو يفكر أن يتصل بسحر للاطمئنان عليها ولكنه تردد كثيرًا، فإذا صدقت النبوءة وكانت هناك حالة وفاة كيف يفسر لها موقفه؟ إنها لن تصدق بالطبع موضوع اللوحة، وفضل أن ينتظر اتصال من سحر به، وجاءه خاطر أن يخرج توتره وقلقه في فنه، أي أن يكون هذا التوتر طاقة

محفزة ووقودًا للإبداع، وهكذا بدأ يعد طقوسه استعدادًا للرسم ومنها استخدام الإضاءة الزرقاء وتشغيل الموسيقى الكلاسيكية التي يعشقها ومنها كنتاتا كارل أورف (carmina burana) و(rhapsody in blue) لجورج جيرشوين، وأضاء مجموعة كبيرة من الشموع وتذكر كلمات سحر الأخيرة له:

- لا تنس وعدك لي، أريدك ألا تتوقف عن الإبداع حتى عودتي اتفقنا؟

أحضر لوحة وبدأ يرتجل الرسم، وتدفق الإلهام لديه بقوة كأنه شلالات، فوجد نفسه يرسم على إيقاع الموسيقى أشجارنخيل في قلب غابة كبيرة من غابات الأمازون، وكلما رسم أكثر اتضحت معالم الغابة أكثر وبدت لوحته كأنها نافذة تطل على غابة حقيقية. أدهشه كثيرًا أن موهبته وصلت إلى هذا الحد من البراعة والجودة والإتقان، وأحس كما لو أن كل تراث الفنانين يحركه ويصب في هذه اللوحة، وبعد ساعة أنهى لوحته برسم ببغاء أزرق اللون من نوع ال Macaw على إحدى أشجار الغابة، ولم يكد ينتهى حتى رن الموبايل في جيبه فأسرع يخرجه ونظر إلى الشاشة فوجده رقم سحر فاتجه صاعدًا إلى غرفته وهو يجيب:

-أهلًا سحر، هل وصلتِ إلى الإسكندرية ؟

جاءه صوت سحر الحزين:

- نعم، يا سامح، ولم أكد أصل حتى علمت بخبر وفاة زوجة عمي. أنا في غاية الحزن، لقد كنت أحبها جدًا، وهي كانت تحبني وتقدرني وكان بيننا صداقة عميقة.

واتسعت عينا سامح وفتح فمه في رعبٍ وتساقط العرق من جبينه مع توالي ضربات قلبه بسرعة غير معقولة، ولما لم تجد سحر منه ردًا قالت:

- آلو . . سامح . . هل تسمعني ؟

أخذ سامح يجاهد كي ينظم تنفسه ولملم شتات نفسه كي يقول:

- نعم، يا سحر، أسمعك بوضوح، أنا في غاية الأسف والبقية في حياتك، أنا أشاركك أحزانك

- أشكرك يا سامح، تصور من شدة حزني خُيل إليّ أن التحفة التي أهديتني إياها لونها أزرق.

- ماذا تقصدين ؟

- إن التحفة الفنية لونها بنفسجي أليس كذلك؟ لقد اختلط عليّ الأمر وظننتها زرقاء.

ولم يشأ سامح أن يخبرها أن التحفة زرقاء بالفعل، ولكن كلام سحر يعني أن حتى التحفة تغير لونها إلى اللون البنفسجي، فعادت ردود فعل سامح مرة أخرى إلى ما كانت عليه من سرعة ضربات القلب إلى العرق الغزير، ثم قال :

- نعم، نعم، لونها بنفسجي؟

- لقد وضعتها في السيارة وأنا أظنها زرقاء اللون كبقية التحف التي لديك، ولما وصلت إلى بيت عمي أخذتها معي إلى داخل البيت؛ لكي تشاهدها زوجة عمي التي كانت مريضة ولما فوجئت بخبر وفاتها اكتشفت فجأة أن القطعة الفنية لونها بنفسجي.

وانهار سامح جالسًا فوق سريره، ثم قال:

- أسأل لك الصبر والسلوان على مصابك، وثقي من مشاركتي آلامك من كل قلبي.

- أشكرك يا سامح.

- حسنًا، سأتركك الآن لتستريحي وسوف أتصل بك غدًا للاطمئنان عليكِ.

- حسنًا، مع السلامة يا سامح

- مع السلامة يا سحر.

وانتهت المكالمة وبدأ شريط من الصور المتتابعة يتوالى في ذهن سامح: تغيير زي سحر في اللوحة للمرة الأولى، ثم تغييره للمرة الثانية، ثم معرفته خبر وفاة قريبة سحر ما يترتب عليه صدق نبوءة اللوحة، ثم معرفته بأمر تغير لون التحفة الفنية من اللون الأزرق إلى البنفسجي، وهذه آخر المفاجآت المرعبة لقد كان سامح يعتقد أن المشكلة في لوحاته التي يرسمها وأنها وحدها مصدر الرعب، فإذا به يفاجأ بتغير القطعة الفنية أيضًا للفنان الأمريكي ديل شيهيلي، ولم يكد يصل إلى هذه الفكرة حتى سمع صوتًا رفيعًا يصيح بكلمة غريبة(ساخالاڤوس) فتلفت حوله في فزع وتعجب بحثًا عن مصدر الصوت، وعاد الصوت المرعب يردد نفس الكلمة، وتذكر سامح القطة السوداء يبدو أنها هي، وأخذ يحاول فهم معنى هذه الكلمة الغريبة، شعر أنه سمعها من قبل في مكان ما ولكن لا يتذكر أين ومتى، ولكن كيف نطقت القطة السوداء بهذه الكلمة؟ ولم لا ؟ الذي جعلها تخرج من اللوحة يجعلها تنطق، إن الأمر كله من وراء الخيال منذ أن دخل القيلا، ولكن ما معنى هذه الكلمة؟ هل هي رسالة موجهة له؟ هل لها معنى

قد يفسر الرعب الغامض المحيط به؟ وبشجاعة مفاجئة قرر النزول إلى مصدر الصوت؛ لقد سئم من رعبه، وخوفه، وتوتره، سئم من هذه الألغاز المتوالية ويريد أن يضع حدًا لكل هذا الغموض، لابد أن يعرف معنى الكلمة مهما كان الثمن، ونزل سامح إلى صالة الڤيلا وأخذ يفتش عن القطة السوداء فلم يجد شيئًا ولم يسمع الكلمة، فتش تحت المقاعد لعل القطة تكون مختبئة، وبينما هو منهمك في فحص أسفل المقاعد، وما بين الأركان، وأسفل الموائد، فوجيء بالصوت يأتي إليه بالكلمة الغريبة يأتي إليه ليس من أسفل، وإنما من أعلى، وعندما رفع بصره لأعلى شاهد فوق النجفة الضخمة ببغاء أزرق اللون وكان ينظر إليه ويردد:(ساخالاڤوس، ساخالاڤوس) وبحركة تلقائية سريعة نظر سامح إلى لوحة الغابة التي أنهاها منذ قليل؛ لقد كانت اللوحة كما هي بكل أشجارها التي رسمها وبكل تفاصيلها الأخرى فيما عدا تفصيل واحد؛ اختفاء الببغاء من على الشجرة التي كان يقف عليها في اللوحة.

*****

الفصل السادس

في اليوم التالي استيقظ سامح من نومه في وقتٍ متأخرٍ على غير عادته، وأصابته الدهشة لوجوده في سريره دون أن يتذكر أي شيء من الليلة السابقة بعد أن اكتشف خروج الببغاء الأزرق من لوحته، جلس في سريره وأخذ يجاهد كي يتذكر ما حدث ولكن دون جدوى، هل كان يحلم ؟ ولم يكد ينهض من سريره حتى سمع صوت جرس الڤيلا فاتجه نازلًا وهو ينظر في ساعته اليدوية فوجدها الرابعة مساءً، ففكر ياتُرى من هذا الزائر؟ حتى وصل إلى الباب الخارجي لسور الحديقة ففتحه ونظر إلى الزائر؛ كان رجلًا عجوزًا، طيب الملامح، في أواخر الخمسينيات من عمره، يرتدي جلبابًا وقبل أن يتحدث سامح قال له الرجل باحترام:

- مساء الخير يا أستاذ سامح.

- مساء الخير، من أنت ؟

- أنا منصور علي، البستاني، أرسلتني الأستاذة سحر إليك؛ كي أرعى الحديقة، وأقوم بمساعدة سيادتك في الڤيلا.

- أهلًا بك يا عم منصور تفضل.

ودخل منصور مع سامح إلى حديقة الڤيلا وأخذ يتأمل الأشجار والزرع باهتمامٍ وهو يقول:

- يبدو أن يدًا لم تمتد إلى الحديقة منذ فترة طويلة.

- هذه فرصتك لتثبت جدارتك، ولكن أولًا تعال لنتحدث قليلًا في الڤيلا.

وصحبه إلى الداخل حتى استقرا على مقعدين في الصالة، ولاحظ منصور لوحات سامح التي تملأ المكان فقال:

- لقد أخبرتني الأستاذة سحر أن سيادتك فنان كبير.

ابتسم سامح وقال:

- إنني مازلت أحاول.

ثم دقق النظر كثيرًا في الرجل العجوز وفجأة تحركت غريزة الفن داخله وبدأ يرى في الرجل العجوز (موديل) لموضوع فني رائع بهذه الهيئة البسيطة الفقيرة وملامحه التي تمزج الطيبة بآثار الشقاء والكدح، وجلبابه المميز ككل لبس المصريين الفقراء الأجراء، وابتسامته التي يتجمع فيها كل ما هو مصري صميم، وهيئته المتواضعة والشامخة في نفس الوقت التي تشعر أمامها بكل تاريخ مصر بفراعنته، وآثاره، وحضارته، وعرق كل أجياله وتجاعيد وجهه التي تبدو وكأنها آثارٌ فرعونية، وسواقي ريفية، ونقوشا تاريخية، باختصار إنه نموذج لبورتريه مثالي يجسد كل هذا في لوحة واحدة، وشعر سامح بألفة قوية ناحية الرجل العجوز وارتياح نفسي عميق، أما الرجل فقد شعر بالارتباك من نظرات سامح المدققة فيه فقال :

- هل هناك شيءٌ يا أستاذ سامح؟

كاد سامح أن يقول له إنني أتأمل في جمالك المصري الأصيل هذا لولا أن خشى أن يتصور الرجل أنه يسخر منه فقال :

- لا شيء يا عم منصور إنني فقط أحسست بالألفة معك، فأنا منذ فترة طويلة وأنا أعيش وحيدًا من قبل حتى أن أسكن هذه الڤيلا فاعذرني.

ابتسم العجوز الطيب وقال:

- لا بأس يا سيدي، أنا تحت أمرك.

- أخبرني يا عم منصور، أنت بالطبع تعمل في هذه المنطقة منذ زمن أليس كذلك ؟

- نعم يا أستاذ سامح، ولقد عملت في كثير من القيلات هنا.

- ألم تسمع عن أي شيء غريب عن هذه القيلا ؟

بدا التردد والاضطراب على وجه منصور للحظة قبل أن يقول:

- بلى، يا سيدي، إنني أرى من الواجب أن أخبرك بما أعرف عن هذه القيلا ما دمت قد سألتني.

بلهفة :

- حسنًا، ماذا تعرف ؟

- في الحقيقة يا سيدي، إنه أمر معروف ونشر في جميع الجرائد والكل يعرفه.

- لقد قضيت فترة كبيرة من حياتي في أمريكا وخلال هذه الفترة انقطعت أخبار مصر عني .

هز منصور رأسه بضع مرات علامة الفهم وقال:

- إذن سأخبرك يا سيدي، ولكن بالله عليك لا تلم الأستاذة سحر؛ لأنها لم تخبرك فقد خشيت أن تخاف من القيلا.

- لا تقلق، المهم تكلم.

- كل ما أعرفه يا سيدي هو موضوع المطربة التي قتلت في هذه القيلا منذ عامٍ تقريبًا، المطربة من أصل أجنبي سارة.

قفز سامح من مكانه صائحًا:

- قتل ؟! تقول جريمة قتل ؟!

نهض منصور واقترب من سامح ووضع يده على كتفه قائلًا :

- اهدأ يا أستاذ سامح، لا يوجد ما يجعلك تخاف.

- بل يوجد، أنت لا تعرف شيئًا.

- إنه حادث منذ سنة، والڤيلا تؤجر منذ ذلك الوقت ولم يشتك منها أحد إطلاقًا.

- وكيف قُتلت هذه المطربة ؟

- إنه خلاف حدث بينها وبين عشيقها رجل الأعمال الملياردير، فدبر جريمة قتلها في هذه الڤيلا.

- وهل تم القبض عليه ؟

- لا، يا سيدي، لقد تمكن من الفرار خارج البلاد قبل أن تتمكن الشرطة من القبض عليه . ومازال هاربًا حتى هذه اللحظة.

-إن هذا يفسر كل شيء.

- ماذا تعني يا سيدي ؟

- هناك أمورٌ مرعبة تحدث في هذه الڤيلا منذ أن دخلتها.

- أية أمور يا سيدي ؟

- لن أستطيع أن أشرح لك، إنه أمر يفوق تصوراتك وخيالك.

- أؤكد لك يا سيدي، أن الڤيلا نظيفة تمامًا مما تحاول أن تخبرني به، لقد فهمت، أنت تتخيل أن هناك أرواحًا تسكن الڤيلا بعد الجريمة التي

وقعت فيها، ولكنني أؤكد لك بحكم عملي لمدة عام في الڤيلا أنه لا يوجد فيها ما يثير الريبة.

- ولكن هناك أشياء تحدث لي في هذه الڤيلا، أنا واثق مما أقول.

- يا سيدي لو كان هناك شيء لظهر لمن سبقوك في السكن هنا، لماذا يحدث لك هذا أنت وحدك؟ وبعد أن مر على الجريمة تلك الفترة الطويلة ؟ من المؤكد أنك تتوهم، إن الوحدة يا سيدي، لها تأثيرات رهيبة على الإنسان، ولكي أطمئنك أكثر دعني أسألك سؤالًا.

- تفضل.

- لقد أخبرتني أنك كنت في أمريكا أليس كذلك ؟

- بلى.

- ألم تشعر ببعض الخوف والقلق هناك ؟

سرح سامح قليلًا متذكرًا العام الذي قضاه في أمريكا؛ لقد كان يشعر فعلًا ببعض الخوف والقلق دون أن يدري له سببًا ولكن ما حدث له من عبث شيطاني حدث له في الڤيلا فقط فقال:

- بلى، أذكر ذلك .

- وكنت تقيم وحيدًا بالطبع.

- أجل .

- أرأيت يا سيدي، إنها الوحدة التي تسبب للإنسان وحشة في حياته.

هدأ سامح تمامًا بعد كلمات الرجل العجوز وصوته الدافيء، وبدأ يشعر أنه يقف أمام أحد الحكماء الذين يجذبون المرء بحديثهم المليء بالحكمة وقال:

- عندك حق، قد يكون هذا صحيحًا فعلًا، وأنا كنت أتوهم بسبب الوحدة فأنا ليس لي أقرباء، أو أصدقاء وأعيش دائمًا منطويًا منعزلًا ولا أخرج إلا نادرًا، كأنني منفصلٌ عن الحياة الإنسانية أو كأنني من كوكب آخر.

الرجل بأبوة حقيقية :

- اطمئن يا سيدي، لن تشعر بالقلق بعد الآن بإذن الله، سوف أرعاك مثل ولدي .

- أشكرك يا عم منصور.

- صدقني يا سيدي، إن هذه المخاوف، والهواجس، والقلق تأتي لكل العزاب إلى أن يقترنوا ببنت الحلال التي تكون لهم سكنًا وملاذًا ومسكنًا لكل الوساوس.

اطمأن سامح لكلمات منصور وشعر بارتياحٍ بالغ في وجوده، ثم تذكر فجأة أمرًا ما فسأل:

- عم منصور، لقد أخبرتني أنك كنت تعمل في الڤيلا كلما يؤجرها ساكن جديد أليس كذلك ؟

- بلى، يا سيدي.

- ولكن الحديقة تحتاج إلى تنسيق ورعاية فأين كنت في الفترة التي أهملت فيها الحديقة؟

- لقد كانت هناك امرأة تؤجر الڤيلا قبل مجيء سيادتك إليها ولقد عرضت عليها خدماتي، ولكنها رفضت بحجة أنها لا تحب الإزعاج وتريد أن تقيم في خلوة .

- من هذه المرأة ؟

تردد منصور في الإجابة ثم قال: إنها أخت المطربة القتيلة .

عادت المخاوف من جديد لسامح وهو يقول في دهشة:

- ولماذا أرادت الإقامة في الڤيلا بعد الحادث ؟

- لقد قالت للأستاذة سحر أنها تريد أن تبقي قليلًا في المكان الذي آوى أختها لآخر مرة كنوعٍ من تذكرها، ولتشعر بأنفاس أختها في المكان.

– شيءٌ غريب المفترض أن يبتعد الإنسان عن ذكرى أليمة كهذه.

ولاحظ منصور قلق سامح الذي عاد يتجدد بعد أن كان قد تلاشى فقال:

- يا سيدي، ليس في الأمر شيءٌ، هذا سلوك فردي من واحدة فلا يعني أن هناك ما يريب.

لم يرد سامح وظل ساهمًا يحملق في الفراغ فقال منصور:

- هل عاودك القلق مرة أخرى يا سيدي؟ ألم تقتنع أن الأمر مجرد تخيلات بسبب الوحدة ؟

نظر سامح إلى الرجل وقال وهو يبتسم :

- إن وجودك يطمئنني بالفعل يا عم منصور.

- الحمد لله.

- ولأثبت لك أنني لم أعد قلقًا سأعرض عليك أمرًا تساعدني فيه.

- أنا تحت أمرك يا سيدي.

- أريد أن أرسم لك صورة شخصية.

- إن هذا شرف كبير لي يا سيدي.

– إذن لنبدأ على الفور.

*****

الفصل السابع

منذ أن أتى منصور صارت الأيام في الڤيلا هادئة تمامًا، ولم يلحظ سامح شيئًا مرعبًا كما كان يحدث له، وذلك بعد أن راقب لوحة منصور التي رسمها والتي أصابت الرجل العجوز بالدهشة والانبهار حتى أنه علق بعد أن رأى نفسه في اللوحة وكأنه يرى نفسه في المرآة:

- وأنت كنت تقول لي أنك تخاف من الڤيلا، ها أنا ذا الذي أخاف منك يا سيدي، فنّك هذا ليس فن بشرٍ.

وضحك سامح كثيرًا ولاحظ أن اللوحة ظلت طبيعية ولم يحدث لها شيئًا، فاطمأن أكثر وأكثر وصار مقبلًا على الحياة.

ومضت الأيام بسامح وهو في سعادة في ظل رعاية منصور له ولم يعد يستيقظ متأخرًا بل عاد لطبيعته في الاستيقاظ المبكر، وأخذ يمضي وقته في الرسم حينًا، وفي القراءة حينًا، وفي السباحة حينًا، والتجول كثيرًا بالسيارة، ونسى كل شيء حدث وكأنه لم يكن، وبدأ يشعر بحلاوة الحياة وجمال الطبيعة، واندهش من نفسه كيف وهو فنان يصور الطبيعة والحياة ولكن هو نفسه كان محرومًا من الاستمتاع بجماليات الحياة، فراح يرتوي من جمالها بالخروج والتنزه.

وذات مساء قرر سامح نقل جميع اللوحات السابقة التي كان قد رسمها وظهر بها عبث شيطاني إلى الصندرة، فجمع كل اللوحات بمساعدة

منصور وصعدا سويًا إلى الصندرة، وبينما انهمك منصور في رص اللوحات كما أمره سامح، انهمك سامح في النظر إلى أرضية الصندرة حيث لاحظ شيئًا ما، وكاد أن ينحني ليدقق النظر لولا أن منصور أسقط بعض الأشياء التي كانت مخزنة في الصندرة، ومع سقوط الأشياء انفلت برواز ذو إطارٍ ذهبي به صورة فوتوجرافية لامرأة جميلة، فأسرع سامح يلتقط البرواز ونظر في الصورة ومنصور يعتذر عن الفوضى التي أحدثها، ودق قلب سامح الدقات التي كان قد نسيها تمامًا والتي كانت تأتيه في فترة رعبه وسأل منصور:

- هل تعرف صورة من هذه ؟

نظر الرجل إلى الصورة وقال:

- إنها صورة المطربة التي حدثتك عنها يبدو أن أختها نسيتها عندما كانت هنا.

وبتفكيرٍ سريعٍ قال سامح :

- هل كانت أخت المطربة التي أجرت القيلا توأمًا للمطربة؟

فوجيء منصور بالسؤال واندهش كثيرًا وراح ينظر إلى عيني سامح في ذهولٍ قبل أن يقول:

- كيف عرفت أنهما توأمتان ؟

- إذن لقد حللت اللغز؛ إن الأخت المزعومة لم تكن أختًا إنها المطربة نفسها.

قال منصور مذهولًا :

- ولكن المطربة قُتلت.

- أنت تفهم ما أقصد، إنه شبحها؛ لقد عاد شبح المطربة وادعى أنه الأخت التوأم ولكن في الحقيقة إنها المطربة نفسها.

- غير معقولٍ، ما هذا الكلام الذي تقوله يا سيدي ؟

- أمازلت لا تصدقني؟ إن الأمر حقيقة لا شك فيها، وهو يفسر كل ما مر بي من رعبٍ هنا، ولأثبت لك صحة كلامي انظر.

وانحنى يلتقط الشيء الذي كان قد لاحظه على أرضية الصندرة قبل أن يحدث منصور الفوضى التي أحدثها، وأمسكه بيده وفرده على كفه في مجال رؤية منصور الذي نظر فشاهد ريشة طائر زرقاء اللون فقال:

- ما هذا ؟

- إنها ريشة كما ترى ولونها أزرق، ريشة الببغاء الذي رسمته وخرج من اللوحة واختفى وكان يردد كلمة ساخالاقوس، وأنت بالطبع تعلم أنه لم يدخل الڤيلا طائر من هذا النوع واللون أليس كذلك؟

قال الرجل هوغارق في دهشته:

- أجل، هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها ريشة بهذا الشكل.

- إن المطربة تحاول توريطنا في جريمة قتلها.

- ماذا تقصد ؟ :

- إنها تريد الانتقام بواسطتي من قاتلها؛ فراحت تقوم بكل التصرفات التي حدثت معي حتى تنبهني بوجودها في الڤيلا .

- يا سيدي كيف تريدني أن أصدق شيئًا كهذا ؟ إنك رجل متعلم.

- أحيانًا يقف العلم عاجزًا عن أمورٍ هي من وراء الخيال.

- أنا لا يمكن أن أصدق أمرًا كهذا.

- والريشة ؟ أكبر دليلٍ على ما حدث.

- من الممكن أن تكون لطائرٍ دخل دون أن ندري.

- إذن سوف تضطرني لفعل أمرٍ خطير حتى أؤكد لك أنني لست مجنونًا ولا أتوهم.

- ماذا ستفعل ؟

- سأرسم صورة المطربة القتيلة وسترى بنفسك وهي تغادر لوحتي وتتجسد.

- بالله عليك يا سيدي، لا داع لهذا الكلام.

- سترى بنفسك، تعال معي .

ونزل كلاهما إلى الصالة، وراح سامح يجهز لوحته، وألوانه، وأدواته، ووضع البرواز الذي به صورة المطربة أمامه وأخذ يرسم ويرسم صورتها بكل دقة وإتقان، ومنصور ينظر إليه تارة، وإلى اللوحة تارة أخرى حتى انتهى إلى إنجاز رسم صورة المطربة كما في الصورة الفوتوجرافية، ووقف هو ومنصور ينظران إليها، ومضت الدقائق دون أن يحدث أي شيء كما توقع سامح، ومنصور ينظر إلى سامح في حيرة فأشار سامح أن يختبيء كلاهما خلف إحدى الستائر وراحا يراقبان اللوحة والدقائق تمر بلا جدوى، هنا انتابت سامح حالة من العصبية واتجه ممسكًا باللوحة وألقاها على الأرض وداس عليها وهو يصيح:

- مستحيل، أنا لست مجنونًا.

حاول منصور تهدئته ولكن سامح انطلق فجأة يجري وهو في قمة الغضب وغادر الڤيلا؛ حيث استقل سيارته وانطلق بها في ثورة غضبه .

لا يدري سامح كم مضى عليه من الوقت وهو ينطلق بالسيارة كالصاروخ حتى وجد نفسه أمام (ديسكوتك) فأوقف سيارته ونزل منها ثم دخل على الفور، ولم ينتبه إلى اسم الديسكوتك والصورة التي بجوار الاسم؛ كان الاسم ديسكوتك (black cat) وصورة قطة سوداء كان يريد أن ينسى ما هو فيه، وهكذا اتجه إلى البار وأخذ يحتسي الخمر ونظر نظرة سريعة إلى جموع الراقصين في المكان، ولم يكد ينظر حتى انتفض في عنفٍ رغم سكره؛ لقد شاهد الوجه الأزرق المخيف الذي رسمه، كان الوجه فوق كل جموع الراقصين في الديسكوتك، نهض من مكانه وهو يترنح لكي يهرب من المكان، ولكنه شعر بيدٍ تجذبه ولما نظر شاهد فتاة شقراء جميلة في العشرينات من عمرها قالت ضاحكة :

- هيا لترقص معي.

حاول أن يفلت منها ولكنها لم تعطه فرصة إذ جذبته إلى حلبة الرقص وأصبح محاطًا بجموع الراقصين من كل جانب، ولما رأوه أخذوا يهتزون على أنغام الموسيقى ويصيحون :

- ساخالاڤوس . . ساخالاڤوس .

وصرخ سامح بشدة وضاع صراخه وسط صخب هتافات الراقصين والموسيقى فجذب الفتاة من يدها وجرى هاربًا من مركز الدائرة التي كانت تحاصره، وقبل أن يتحرك خطوة أخرى تغيرت الإضاءة وأصبحت بلونٍ أزرق كئيب مرعب، وطار الكحول من رأسه تمامًا وهو يرى أغرب ما رآه في حياته حتى الآن؛ لقد شاهد سامح توأمًا له كأنه يشاهد نفسه في مرآة،

وكان هذا التوأم يتوسط حلقة الراقصين ممسكًا جيتارًا(Acoustic) أزرق اللون ويعزف مقطوعة Heavy Metal وقالت له الفتاة الشقراء:

- إنه أخوك التوأم أليس كذلك؟

واتسعت عينا سامح ودق قلبه؛ كان هذا أقصى ما يحدث له من رعبٍ قال للفتاة :

- إنها لا تريد أن تدعني وشأني.

- من هذه التي لا تريد أن تدعك وشأنك ؟

- المطربة .

-أية مطربة ؟ إنني لا أرى أية مطربات في المكان.

- المطربة القتيلة .

قالت بخوفٍ: - قتيلة ؟ أين هي؟

- إنها حكاية طويلة.

- وأنا أريد أن أعرفها.

- ليس الآن، أريد أن أرى أولًا ذلك الذي يشبهني.

- لقد ظننته أخاك.

- هل رأيتِ وجوه الراقصين منذ قليل عندما كانت زرقاء؟

قالت مندهشة :

- ماذا تقول ؟ يبدو أنك سكران جدًا.

- سكران ؟ إنك لا تعلمين شيئًا.

وقبل أن تنطق الفتاة أنهى شبيهه عازف الجيتار عزفه وغادر مكان الرقص، فأشار سامح للفتاة أن تبقى في مكانها ومشى خلف الشبيه ومع جو

الديسكوتك المحيط به بأضوائه المبهرة، وزحامه الشديد، والموسيقى المرعبة الصاخبة، وذلك الشبيه الذي يتبعه، أحس سامح أنه في كابوسٍ مرعب لا يستطيع الاستيقاظ منه، وبدأ يتساءل لماذا حدث له كل هذا هو بالذات ؟ لماذا اختارته المطربة القتيلة لتفعل معه كل هذا؟ هل لأنه فنان وهي أيضًا فنانة ؟ هو رسام وهي مطربة فهل اقترنت به لهذا السبب ؟ إذن سيلعن الفن طوال حياته، هذا إذا بقى شيء في حياته بعد كل هذا الفزع الذي عاشه، وظل الشبيه يتقدم وسامح خلفه يقاوم زحام الموجودين حتى لا يفلت منه حتى وجده يدخل إحدى الصالات فدخل خلفه، كان الشبيه يوليه ظهره فاقترب منه سامح بحذرٍ حتى أصبحت المسافة بينهما بضعة أمتار وقال:

- من أنت ؟

ولم يكد الشبيه يلتفت إلى سامح حتى تحول إلى امرأة، وبالتحديد إلى المطربة القتيلة، وتجمد سامح في مكانه من أثر المفاجأة المرعبة وظل ينظر إلى المرأة التي نطقت بكلمة واحدة:

- ساخالاڤوس .

وما أن سمع سامح الكلمة حتى سرعان ما انطلق يعدو هاربًا بكل ما أوتي من قوة وهو يقاوم الزحام ويصطدم برواد المكان حتى مر على الفتاة الشقراء التي كان يرقص معها والتي كانت بانتظاره، ولما رأته يتجاوزها ويعدو صاحت به:

- انتظر أنا هنا، هل نسيتني ؟

وانطلقت تعدو خلفه حتى لحقت به وصاحت:

- ماذا حدث ؟

قال بعد أن غادرا الديسكوتك ووقفا خارجه بجوار سيارته:

- لقد ظهرت المطربة القتيلة.

قالت الفتاة بالإنجليزية:

- يا إلهي!!

وجذبها من يدها وركب معها السيارة وانطلق بها فقالت:

- اسمي ساندي بالمناسبة، إلى أين ننطلق ؟

وألقى سامح نظرة سريعة على الديسكوتك وهو يبتعد بالسيارة، ولمح هذه المرة اللافتة وصورة القطة، وعادت ساندي تسأله مجددًا :

- يا صديقي، إلى أين نذهب ؟

- لا أدري، أنا أشعر بالخوف، لقد حللت اللغز، ولكن ما هو ساخالاقوس ؟

- ماذا تقول ؟ ما هذه اللغة الغريبة ؟ من أين جئت بها ؟

ثم فتحت حقيبتها وأخرجت منها زجاجة خمرٍ قائلة :

- إنك تحتاج إلى هذا؛ لكي تنسى كل ما أنت فيه .

تناول سامح الزجاجة وأخذ منها عدة جرعات أعادت إليه سكره وشاركته الفتاة فيما تبقى من الزجاجة، وزاد من سرعة سيارته .

*****

الفصل الثامن

وصل سامح وساندي إلى الڤيلا في ساعةٍ متأخرة من الليل وهما في حالة سكرٍ شديدة، وما أن دخلا الڤيلا حتى انقلبت بهما رأسًا على عقب؛ تبعثرت لوحات سامح في كل مكان على الأرض، فوق المقاعد، على الموائد، واستخدم سامح اللون الأزرق بدرجاته في الرسم على الجدران بطريقة ال (psychedelic)، ولطخ وجه ساندي وملابسها، ولطخته ساندي بدورها، ثم توقف سامح فجأة وقال لساندي:

- كيف لم أنتبه من قبل ؟ إن جمالك هذا يحتاج إلى تصوير.

وجذبها من يدها لتقف في وضع معين والتقط لوحة وأخذ يرسم الفتاة الشقراء الجميلة قائلًا :

-هذا الجمال لابد أن يخلد في لوحاتي، ستكونين ال (masterpiece) في أعمالي.

وأخذت ساندي ترقص في مكانها، ثم تجري وسامح خلفها يحاول الإمساك بها وإعادتها إلى مكانها، واستمرت الفتاة تعاكسه بحركاتها وهو يحاول رسمها حتى انتهت اللوحة أخيرًا، وعلى الرغم من أن سامح في حالة سكرٍ إلا أنه أخرج صورة في غاية الروعة، ولما رأت ساندي اللوحة صاحت مندهشة :

- مستحيل ، هذا ليس فن إنه سحر، أنت ساحر.

وخطر على بالها فكرة مجنونة فقالت:

- مادمت بهذه البراعة إذن ارسم الرب.

نظر لها سامح نظرة حادة غاضبة بعد أن أفاقته الكلمة من سكره وقال بغضبٍ:

- أنت سكرانة.

قالت معتذرة بعد أن أدركت غضبه من كلمتها:

- أنا آسفة يا سامح لم أقصد، حقيقة فنك هذا جعلني أتصور أنك قادرٌ على رسم أي شيء، ما رأيك أن ترسم ملاكًا ؟

هرش سامح رأسه قليلًا، ثم قال وهو يضحك:

- أنت ذكرتني بقصة مدهشة لبيكاسو وهو يرسم بورتريه لستالين فخرجت الصورة لوالد زوجته وليس لستالين.

سألته في حيرة :

- ماذا تعني ؟

- أعني أنني سأستخدم هذه الطريقة، سأرسم صورة تخيلية لملاك بالأسلوب السريالي ونرى ماذا تكون عليه اللوحة في نهاية الرسم .

صفقت قائلة :

- فكرة رائعة أنت مدهش.

وبدأ سامح يرسم صورة الملاك الذي سيصبح شيئًا آخر بالطريقة السريالية، ووقفت ساندي تتابع الرسم بحماسٍ، واستمر سامح يرتجل الرسم بطريقة عجيبة فكانت لوحته تتبدل في سرعة مدهشة من صورة ملاك إلى شيطان إلى إنسان.

وكالعادة في كل إبداع عظيم يقوم به سامح استغرقت منه اللوحة ساعة حتى انتهى.

نظرت ساندي بدهشة إلى اللوحة ثم قالت :

- إنها فتاة .

أما سامح فقد أخذ باللوحة تمامًا وظل يتأملها طويلًا بعد هذه الرحلة الارتجالية التي قام بها بالألوان ثم علق :

- وجدتها، هذه هي ال(masterpiece) التي كنت أبحث عنها هذه هي التي ستخلدني في عالم الرسم، هذه التي ستجعل اسمي بجوار دافنشي، وبوتشيلي، ومايكل أنجلو، وفان جوخ، وفرمبير، وبيكاسو. هذه اللوحة التي ستكون في كتب الفن بجوار لوحات الجيوكندا، والفتاة ذات القرط اللؤلؤي، ومولد فينوس، والجورنيكا، وليلة مليئة بالنجوم.

قالت غاضبة :

- ألم تخبرني أنك ستجعلني ال (masterpiece) لأعمالك الفنية ؟

قال وهو لا يحول بصره عن اللوحة :

- إن جمالك هو الأصل الباقي رغم أي صور تقلده، أما هذه اللوحة فهي من وحي الخيال لجمالٍ لم يوجد في هذا العالم الواقعي وهذا هو سر عظمتها .

شعرت ساندي بالسرور من كلماته وابتسمت وأخذت تتأمل معه اللوحة وعلق هو قائلًا :

- ولا في أروع أحلامي كنت سأرى إبداعًا بهذا الشكل، لقد شاء القدر أن يكون دورك في حياتي ليس مجرد (موديل)، وإنما سببًا لخلق أعظم ما أبدع الإنسان، هذا ما وعدت سحر به أن أنجزه في غيابها.

سألته مندهشة :

- من سحر هذه ؟

- إنها مساعدتي وملهمتي وكان لها دور أيضًا في مسيرتي الإبداعية.

ثم خبط جبهته بكفه قائلًا :

- ألم تلحظي هذا؟ سامح، ساندي، سحر، كلنا نبدأ بحرف السين، صدفة مدهشة.

قالت بتلقائية :

- وساخالاقوس هل نسيت ؟

دق قلب سامح، ثم قال بغضبٍ :

- لماذا ذكرتني بهذا ؟ لقد كنت قد نسيت.

- لم أقصد، لكنني تذكرت أن هذه الكلمة أيضًا تبدأ بحرف السين.

متجاهلًا كلمتها:

- المهم، ما رأيك أن نسمي هذه الفتاة التي في اللوحة باسم يبدأ بالسين أيضًا ؟

- فكرة رائعة ولكن ماذا تقترح لتسميتها ؟

- ما رأيك أن نسميها سيلين تيمنًا باسم إلهة القمر فهي تستحق هذا الاسم لنورها المشع وجمالها الذي ليس له مثيل.

- اسم جميل جدًا.

ونظر سامح لوجه الفتاة التي رسمها في اللوحة وقال مخاطبًا إياها :

-مرحبًا بك يا سيلين، أنتِ قمر حياتي.

- لولا أنها صورة مرسومة لشعرت بالغيرة من جمالها الفتان.

ومضى الوقت سريعًا وطلع الصباح فخرج سامح مع ساندي ليوصلها بالسيارة إلى منزلها وراح يشكرها على الوقت الذي قضته معه، ورحب بصداقتها وطلب منها أن تتصل به في أي وقتٍ وعاد سريعًا إلى الڤيلا، كان يشعر بنشوة لا توصف بعد لوحة سيلين التي رسمها أحس أنه يريد الاحتفال بها؛ فظل ينظر إليها ساعات الصباح الأولى حتى غلبه النوم وهو على إحدى الأرائك .

*****

الفصل التاسع

استيقظ سامح في ساعة متأخرة من النهار، واندهش لغياب عم منصور كل هذا الوقت ونسى كل ما مر به ليلًا في الديسكوتك وانشغل بلوحته الجديدة التي رسمها في حضور ساندي بطريقته السريالية فخرجت من بين يديه من أبدع ما يكون، وكانت الفتاة المرسومة في اللوحة ذات جمال لا يوصف كأنها ملاك تحول إلى إنسانٍ وظل محتفظًا بملامحه وخواصه وهالته النورانية أو كأنها مخلوق من عالم آخر به جمال لم يوجد على الأرض منذ بدء الخليقة، وتمنى سامح لو أنه قابل فتاةً لها هذا الجمال، وبدأ يتعلق شيئًا فشيئًا بما صنعت يداه حتى عشق الفتاة التي في اللوحة كأنها موجودة بالفعل وذكره هذا ببجماليون الذي هام حبًا بالتمثال جالاتيا الذي صنعه، وتوقع سامح لنفسه أنه لن يحب أبدًا أو يدخل في تجربة رومانسية مادامت هذه اللوحة موجودة، سيظل يحبها ويتمنى أن يراها في عالم الحقيقة لا في عالم الفن، ووجد نفسه يفكر في رسم المزيد من اللوحات لها؛ جهز كل أدوات الرسم ثم فتح الشرفة ووقف مستنشقًا النسيم وأخذ يقوم ببعض التمارين الرياضية ليلين يديه استعدادًا للرسم، وبينما هو يقوم بالتمارين وقع بصره على شرفة الڤيلا التي أمام ڤيلته، وبالتحديد على تلك الفتاة الشقراء الجميلة التي تطل من شرفة الڤيلا لقد كانت الفتاة هي سيلين، وارتجف سامح من هول ما رأى، وبحركة لا إرادية نظر إلى لوحة سيلين فوجدها كما هي بلا أي تغيير، ثم عاود النظر إلى الفتاة وظل يحدِّق فيها أكثر وأكثر وتحرك مغادرًا الڤيلا كأنه

منوم مغناطيسيًا واتجه إلى الڤيلا التي بها الفتاة ووقف أمام الباب وضغط على زر الجرس، وانتظرأن تجيبه الفتاة وقلبه يرتجف ويرتجف وجسده يرتعش وانفتح الباب وأطل وجه كأنه قادم من ملكوت السماوات العليا، وقبل أن تنطق صاحبته قال سامح :

- مستحيل من أنتِ؟

قالت الفتاة بلهجة تمتزج فيها الدهشة بالغضب :

- عجبًا لك؛ أولًا تحدِّق فيّ بطريقة عجيبة من شرفتك، ثم تتجرأ وتأتي لتسألني من أنا ؟ حسنًا، أنا سيلين، سيلين سامي.

عند هذا الحد انهار سامح تمامًا وسقط على الأرض أمام الفتاة فاقدًا الوعي، عندما استرد سامح وعيه وجد نفسه ممددًا على أريكة في صالة ڤيلا وعلى إحدى الجدران شاهد صورة فوتوجرافية كبيرة للمطربة القتيلة سارة، نهض من رقدته وهو يهز رأسه ليستفيق أكثر وشعر بوجعٍ خفيف في رأسه وأدار بصره في المكان وهو يتساءل عن سبب وجوده فيه، ثم تذكر ما حدث وكيف سقط فاقدًا الوعي بعد أن رأى الفتاة وأخبرته باسمها، وما لبث أن رأى الفتاة تقترب منه وهي تحمل صينية عليها كوب من عصير الليمون المنعش وتقدمه له قائلة:

- تفضل.

تناول سامح الكوب وهو لا يصدق عينيه أنه يقف أمام فتاة ابتدعها خياله ثم يكتشف أنها موجودة في الواقع ومن لحمٍ ودم وتسكن في ڤيلا أمام ڤيلته، وعاد ينظر إلى صورة المطربة ويفكر؛ لا شك أن المطربة هي السبب في حدوث هذا الأمر أيضًا، إذن فهذه الفتاة التي أمامه ليست بشرًا

وإنما كائن من العالم السفلي، ولكن مهلًا إنه يتذكر جيدًا عندما رأى الفتاة لأول مرة نظر إلى لوحته ولكن اللوحة لم تكن خالية ولم يحدث لها أي تغيير؛ إذن ماذا حدث؟ وكيف تجسدت الفتاة في اللوحة وخارجها في نفس الوقت؟

ووضع سامح يده على رأسه متأوهًا فاقتربت منه الفتاة وهمت أن تضع يدها على رأسه فأفلت منها مبتعدًا بخوفٍ شديد فقالت غاضبة:

- ماذا دهاك أيها الشاب ؟ هل أنت مجنون ؟

أشار سامح إلى صورة المطربة القتيلة وقال :

- هل ؟... هل تعرفينها ؟

ردت الفتاة :

- لا أعرفها شخصيًا ولكنني أحب صوتها، والآن أخبرني ما هي حكايتك بالضبط ؟ ولماذا فقدت وعيك بمجرد أن أخبرتك باسمي ؟

وقف سامح يتأملها طويلًا ولم يرد فقالت :

- هل عدت للنظر مجددًا بهذه النظرات الغريبة ؟ ماذا تريد مني ؟

لملم سامح شتات نفسه وقال :

- هل أنتِ من العالم السفلي ؟

قالت بغضب أكبر:

- من الواضح أنك مجنون بلا شك .

- أنا لست مجنونًا، ما يحدث معي هو الجنون بعينه.

- ما هذا الذي يحدث معك ؟

- قبل أن أجيبك على أي سؤال لابد أن أتأكد أولًا من أنك بشر.

- يبدو أنني سأتصل بالشرطة أو بمستشفى الأمراض العقلية (وقالت بينها وبين نفسها بصوتٍ منخفض) إنه مجنون هارب بالفعل.

سمعها سامح فقال :

- قلت لك أنا لست مجنونًا سأجعلك تفهمين كل شيء، لكن اسمحي لي أولًا أن أتأكد، أرجوكِ أن تعذريني وتقدري موقفي، إن ما حدث معي لم يحدث لمخلوق من قبل.

- وكيف تريد أن تتأكد ؟

- أعطني يدكِ.

رضخت الفتاة للأمر وقالت :

- حسنًا تفضل.

ومدت له يدها فتردد قليلًا ثم اقترب منها بهدوء وأمسك يدها وظل ممسكًا بها بعض الوقت حتى اطمأن فأفلتها ونظر إلى عينيها الجميلتين وأحس أنه يغوص فيهما وقالت هي :

- والآن ماذا بعد؟

- اعذريني إن ما حدث معي أمر فظيع وآخر الأمر مفاجأتي المرعبة برؤيتك.

قالت باستياء :

- هل رؤيتي مرعبة ؟

- عذرًا، أنا لا أقصد، سأخبركِ بكل شيء ولكن أولًا لقد أخبرتني قبل أن أفقد الوعي إن اسمك سيلين أليس كذلك ؟

-أجل، هذا هو اسمي سيلين سامي.

– مستحيل.

- ما هو المستحيل في هذا ؟

- إن اسم سيلين هذا كان نتيجة وحي خيالي صباح اليوم.

- أنا لا أفهم شيئًا.

- سأوضح لكِ حتى تعيشين معي حالة الرعب التي أنا فيها والتي لا أجد لها تفسيرًا حتى الآن. صباح اليوم رسمت لوحة ارتجالية، أنا فنان تشكيلي بالمناسبة، وخرجت اللوحة دون وعي مني أو قصد مسبق لفتاةٍ ليس لها مثيل في عالمنا، فاقترحت أن اسمي اللوحة أو الفتاة التي أبدعها خيالي باسم سيلين على اسم إلهة القمر وذلك لجمالها الذي يفوق جمال البشر ولاكتشافي فجأة وأنا معي صديقة لي أن اسمها يبدأ بحرف السين مثل اسمي وكذلك صديقة أخرى لي.

- يبدو أنك كثير الصداقات للنساء.

- المهم بعد ذلك عندما استيقظت قررت أن أرسم لوحات أخرى لكِ، أقصد لسيلين التي رسمتها وإذا بي أفاجأ بكِ تقفين في شرفة الڤيلا التي أمام ڤيلتي نسخة طبق الأصل من لوحة أبدعتها وأنا مابين الوعي والسُّكر.

باستنكارٍ: إن خيالك يشطح كثيرًا أيها الشاب.

- أؤكد لكِ أن هذا ما حدث ولكي أثبت لكِ صدق كلامي أريدكِ أن تأتي معي الڤيلا لتري بنفسك اللوحة وأنتِ فيها.

ولمح سامح الفضول مرتسمًا على ملامح سيلين وهي تقول :

- حسنًا هيا بنا.

ظلت سيلين تحدِّق في اللوحة كثيرًا جدًا وبدت عليها الدهشة والحيرة والاستغراب، ثم نظرت إلى سامح الذي قال لها :

- هل صدقتِ الآن ؟

أومأت برأسها دون أن تنطق فقال هو :

- والآن ما هو تفسيرك لهذا الذي حدث ؟

ردت والانبهار والدهشة لم يفارقاها بعد :

- لست أدري، ولكن قد تكون المشكلة فيك أنت؛ لابد أن لديك موهبة غير موهبة الرسم، قدرة خاصة كالتخاطر، وقراءة الأفكار، وتحريك الأشياء عن بعد، لديك شيء مثل هذه القوى الخارقة للطبيعة تجعلك ترسم البشر والأشياء قبل أن تراهم.

- ليست المسألة على هذا النحو، هناك شيء غامض يحيط بي لا أدري كنهه.

- ماذا تعني ؟

وروى لها بشكل مختصر ما حدث معه منذ أن رسم القطة السوداء، ولوحة كائن العالم السفلي ذي الوجه الأزرق .

قالت بعد أن استمعت إليه :

- أخبرني ، ماذا تعرف عن العالم السفلي ؟

- لا أعرف عنه أي شيء، ولكن سمعت أنه عالم قائم بذاته، وله وجود مستقل، وبه أرواح، أو أشباح، أو مخلوقات غير بشرية.

وغير الحديث قائلًا :

- عذرًا نسيت أن أقدم لكِ شيئًا .

وأسرع جاريًا إلى المطبخ واحضر مشروبًا مثلجًا قدمه لسيلين التي تناولته منه ثم ضحكت في شيءٍ من السخرية قائلة :

- أهذا ما تشربه ؟

فهم سامح قصدها فقال :

- تقصدين أنني لا أشرب الخمور؟ نعم هذا صحيح، والمرة الوحيدة التي شربت فيها خمرًا كانت عندما دخلت الديسكوتك، كنت في حالة غير طبيعية وأردت أن أخرج منها بالسُّكر.

نظرت إليه بأسلوب كأنها تتشكك فيه ولكن بهزلٍ وقالت :

- هل تريد إقناعي أنك لا تخطيء أبدًا؟.

ضحك قائلًا :

- لا أحد معصوم من الخطأ، كلنا بشر.

انتظر أن تعلق على كلمته ولكنها ظلت صامتة تتناول العصير الذي قدمه لها فقال مغيرًا الحديث:

- يبدو أنني سأقتنع بفكرتك عن امتلاكي موهبة أو قدرة خارقة للطبيعة، إذ يبدو لي أنها التفسير الوحيد لما يحدث لي .

- دعك من هذه الموهبة الآن ودعنا نتحدث عن موهبتك الفنية، إن لوحتك هي أنا بالفعل دون زيادة أو نقصان .

ولأول مرة ينتبه سامح إلى أنه يجلس مع الفتاة التي عشقها من قبل أن يراها، لقد تمنى بعد أن رسمها أن يقابل صاحبتها في عالم الواقع وها هي الأمنية تتحقق، وتجسدت أسطورة بجماليون وجالاتيا من جديد،

وغاص سامح في عينيها أكثر وأكثر وظل يحدِّق في وجهها بنظرات حبٍ صادق فقالت :

- أنا أشعر بما تعكسه هذه النظرات .

- حقًا ؟

- أجل، إنها تدل على أنك مازلت تحبني، أقصد تحبني، بل تعشقني.

لم ينتبه سامح لكلمتها التي أخطأت بها بشكل عفوي والتي قد تعني أنها تعرفه من قبل وقال:

- أعشقك من قبل أن أقابلك، منذ أن رسمتك وأنا هائم بكِ وأدركت أنني لن أحب غيركِ ما حييت.

ابتسمت قائلة ووجهها يحمل نظرات تعكس نفس المشاعر:

- وأنا أيضًا، أشعر أن هناك شيئًا غامضًا يربطني بك ويوحدني معك، شيء رهيب يجذبني نحوك بشكل غير طبيعي وغير مسبوق، أنت من يهواه قلبي لأول مرة.

بسرورٍ لا يوصف :

- أنا لا أصدق، لابد أنه حُلم، هل تتحقق أعظم أمنية لي بهذه السرعة؟! أرسم فتاة أحلامي فتصبح بين يدي في غمضة عين؟ مستحيل.

- أنت قاهر المستحيل يا سامح.

واقترب منها أكثر في لحظة رومانسية جميلة ونظر في عينيها العميقتين وهو يمسك يدها وفجأة في لمح البصر تحولت عينيها إلى عينين مشقوقتين؛ عيني قطة سوداء!!!!!

*****

الفصل العاشر

تراجع سامح للوراء مصعوقًا بعد أن رأى عيني سيلين تتحولان إلى عيني القطة السوداء المخيفة، فنهضت سيلين واقفةً بتوترٍ وقالت :

- ماذا حدث ؟

نظر سامح إلى عينيها مرة أخرى بعد أن تراجع فوجدها طبيعية تمامًا فقال :

- لا شيء، لا شيء، يبدو أنه من كثرة ما حدث لي أصبحت أتخيل أشياء مرعبة، أنا آسف يا حبيبتي، اعذريني.

اقتربت منه سيلين ووضعت يديها على كتفيه قائلة :

- اطمئن يا حبيبي، منذ الآن لن يحدث لك أي شيء مخيف وأنا موجودة أعدك بذلك .

نظر إليها بكل غرامٍ ورومانسية وقال :

- ما رأيك أن نخرج للتنزه قليلًا ؟

- فكرة رائعة، سأذهب لإعداد نفسي ثم نلتقي يا حبيبي.

وشبكت أصابع كفيها في أصابع كفيه للحظات وهي تنظر إليه بكل حب الدنيا كأنها عثرت على حياتها التي كانت ضائعة منها ثم غادرته إلى ڤيلتها، وجلس هو يفكر في كل ما حدث .

تذكر الموقف المرعب الذي حدث منذ قليل وكيف رأى للحظة واحدة عيني القطة السوداء بدلًا من عيني سيلين وقال في نفسه :

- هل كنت أتوهم ؟

وبتفكيرٍ تلقائي أتته فكرة أن يرى لوحة القطة السوداء الآن، اتجه الى اللوحة وأخرجها ونظر فيها واتسعت عيناه في رعبٍ وفزعٍ لم يكن هذه المرة يتخيل؛ لقد كانت حقيقة ملموسة وثابتة في اللوحة، هذه المرة كانت عيني القطة السوداء في اللوحة عينين بشريتين، وتحديديًا نفس عيني سيلين الزرقاوين وكأنها تطل عليه من وجه القطة.

انشغل سامح بسيلين تمامًا على مر الأيام وأصبحت هي كل شيء في حياته وأنسته مخاوفه وما رآه من رعبٍ جديد في عيني القطة التي أخفى لوحتها؛ حتى لا تعكر صفو عشقهما، وأنسته حتى فنه فلم يعد يرسم وأصبح هائمًا بمعشوقته ولا يقضي وقته كله إلا معها سواء في ڤيلته أو في ڤيلتها، أصبحت كل شيء له، وكثيرًا ما كان يخرج معها وينطلق بالسيارة البوجاتي فايرون الزرقاء بسرعة جنونية فرحًا بها وبعشقه، وإذا لم تكن معه في مرة لسبب أو لآخر خرج بالسيارة وهو يضع لوحتها إلى جواره على مقعد السيارة، وفي مرة من المرات وهو خارج بلوحة سيلين يقود السيارة التقى بمجموعة الشباب الذين تعرف بهم ورووا له تجربتهم مع الوجه الأزرق، وراح يروي لهم كل ما مر به وفرجهم على لوحة سيلين، وأخبرهم أنه رسمها قبل أن يراها وأنها موجودة بالفعل فطلبوا منه أن يروها وأخبرهم أنه سوف يقيم حفلًا في ڤيلته وهم مدعوون لمقابلة سيلين والتعرف بها، وهذا ما كان؛ كان الحفل رغم صغره وقله رواده مبهجًا وجميلًا وينتابه جو من المرح، وكانت سيلين تجهز نفسها في إحدى الغرف وسامح يجلس يتحدث مع أصدقائه الذين كانوا مشتعلين حماسًا وشوقًا لرؤية سيلين الملاك الذي أسكرهم جماله في اللوحة، فأرادوا أن يروا هذا

الجمال النادر في عالم الحقيقة، وبعد أن زادت لهفة رواد الحفل أطلت عليهم سيلين ببهائها وجمالها وسحرها الأنثوي النادر؛ في فستان جميل أزرق منحها سحرًا وجمالًا ورونقًا ليس له نظير كأنها مخلوقة به، وكانت مفاجأة لسامح أن يراها بهذا الفستان الأزرق فأسرع إليها والتقط يدها وهي تنزل سلم الدور العلوي وقال لها :

- حبيبتي، ما هذه المفاجأة المدهشة ؟ لم أكن أعلم أنك تحبين اللون الأزرق مثلي، إنه يبدو كما لو أنه صنع خصيصا لكِ، من أين جئتِ به ؟

قالت له هامسة:

- ألم أقل لك أني سأفاجئك ؟

وغرق المدعوون في بحر الذهول من جمال سيلين الأسطوري وهم يرون هذه المخلوقة التي خطفت عقولهم، وراح سامح يعرفها عليهم واحدًا واحدًا وبادلتهم مرحهم ومزاحهم وقالت له :

- من الآن أصدقاؤك هم أصدقائي.

وقضوا أحلى أمسية من السمر، والمرح، والرقص، والأكل، والشرب، والكلام ومع نهاية الحفل اقترب سليم أحد الشباب من سامح قائلًا :

- هل تعلم أن لوحتك هذه تساوي الملايين؟ إن رجل الأعمال الذي أعمل عنده مستر سيزار سوف يجن إذا رآها؛ إنه من هواه جمع اللوحات النادرة مثل لوحتك وسوف يهمه فعلًا أن يرى هذه اللوحة، بل وسيسعى جاهدًا أن يقتنيها، فإن شهوته في اقتناء اللوحات لا تفوقها شهوة اقتناء الحسناوات.

وضحك الصديق وضحك سامح وعاد سليم يقول :

- هل تسمح لي أن أدعو مستر سيزار لرؤية اللوحة ؟

- بكل سرور.

- أشكرك كثيرًا أيها الصديق الطيب.

وغادر سليم الڤيلا مع بقية الأصدقاء تاركين سامح مع سيلين ليستكملا السهرة .

في موعدٍ متفقٍ عليه التقى سامح برجل الأعمال الميليارديرسيزار، وسرعان ما تذكر سامح رجل الأعمال الهارب قاتل المطربة، وما أن جلسا سويًا في صالة الڤيلا الواسعة حتى بادره سيزار قائلًا:

- لقد سمعت من سليم عن وصفه للوحة التي رسمتها وكأنه يقول فيها شعرًا، هل يمكنني أن أراها الآن ؟

ولاحظ سامح مدى لهفته وتشوقه لرؤية اللوحة؛ إنه بالفعل كما أخبره سليم يحمل شهوة رهيبة للوحات، فقال له :

- تفضل معي.

وقاده إلى حيث يعلق اللوحة على إحدى الجدران في غرفة خصصها لها، وظل سيزار يطوف حول اللوحة كأنها كعبة مقدسة له ويتأملها من كل زاوية بعين خبيرٍ قدير، وقد بدت في عينيه شهوة عجيبة وراح يقول :

- هذه معجزة إبداعية بكل المقاييس، إنها تجمع كل تراث الفن السابق واللاحق فيها، أستاذ سامح، كم تطلب ثمنًا لها ؟ سأدفع لك بالدولار.

بحسمٍ :

- إنها ليست للبيع يا مستر سيزار؛ إنها تحفتي التي ستخلدني في عالم الرسم .

- أرجو أن تفكر جيدًا في عرضي يا أستاذ سامح، سأدفع بالدولار نقدًا أي مبلغ تطلبه فيها مهما كان، هل تسمعني ؟ مهما كان.

- قلت لك ليست للبيع.

- حسنًا، سأتركك لتفكر في عرضي، وفي هذه الأثناء سوف أفتتح لك معرضًا فنيًا للوحاتك، ولوحة سيلين هذه التي ستكون حديث الناس كلهم في جميع أنحاء العالم، ما رأيك ؟

- هذا شرف كبير لي يا مستر سيزار أن تقبل افتتاح معرض لي، هذا حُلم حياتي.

سيزار وهو يصافح سامح :

- اتفقنا، جهز أعمالك وأنا سأجهز المعرض وأتصل بك لنرتب كل شيء.

وانتهى اللقاء، ولما جاءت سيلين روى لها سامح ما حدث ورغبة مستر سيزار في شراء اللوحة قالت مندهشة :

- ولماذا رفضت بيعها يا حبيبي؟ إنها فرصة كبيرة لك؛ لتبدأ حياة رائعة وأنا معك.

- إنها كما تعلمين يا حبيبتي، لها مكانة خاصة عندي، إنها لوحتك التي كانت السبب في معرفتي بكِ .

- وهل هذا يمنع أن تبيعها وتكسب ؟ هذا عملك يا حبيبي، ولابد أن تستفيد منه ومن أي عرض يقدم لك، ولا تقلق فأنت ستبيع لوحة وصاحبتها موجودة معك لن تتخلى عنك لحظة واحدة، وثق أنك ستتمكن من رسمها بشكل أحسن ما دمت تملك الموهبة الخارقة التي لديك.

اقتنع سامح بكلامها واتصل على الفور بمستر سيزار يخبره بموافقته على بيع اللوحة، وهكذا تمت الصفقة، وأقيم المعرض بعد ذلك بأيامٍ وأصبح حديث كل الناس في كل مكان، وكان أكثر حديثهم عن لوحة سيلين التي سعى الجميع من كل أرجاء الدنيا لرؤيتها في المعرض، المهتمون بالفنون، والهواه والفنانون، والمحترفون الكل جاء يحج إلى لوحة سياين، وأصبح سامح من أشهر الفنانين التشكيليين في العالم.

وكان الكثيرون يأتون إلى المعرض لدراسة اللوحة ومحاولة تقليدها، وعجز الجميع عن رسم نظير لها مما أشعرهم بالخيبة، كأن في اللوحة سحر خاص لا يمكن تقليده أبدًا .

بعد الضجة التي أحدثها معرض سامح ولوحاته خاصة لوحة سيلين والتي جعلته واحدًا من أشهر الفنانين التشكيليين في العالم أعلنت الصحف اليومية في كل دول العالم أن اللوحة ستؤول إلى صاحبها الملياردير سيزار، وانتقلت اللوحة إلى قصر سيزار وظلت تحت حراسة مشددة ليل نهار مع كافة التدابير الأمنية من إنذارات، وكاميرات مراقبة، ورجال أمن على أعلى مستوى من الكفاءة،؛ لأن الجميع كانوا يتلهفون لاقتناء اللوحة وعرض آلاف من مختلف الجنسيات على سيزار أن يشتروها بأسعارٍ فلكية، ولكنه رفض أن يفرط في كنز إبداعي لا مثيل له، وبعد أن أصبح سامح ثريًا بفضل لوحة سيلين ولوحات أخرى باعها، أقام حفل خطبته بسيلين والذي كان حفلًا رائعًا حضره كبار الشخصيات الهامة، وأصحاب النفوذ، والصحفيين العالميين الذين استغلوا الحفل في التسابق حول إجراء حوارات مع سامح حول موهبته الفنية الفريدة من نوعها؛ وعرض عليه

أحد الصحفيين فكرة مدهشة أن يقوم بالرسم أثناء الحفل ويقوم الصحفيين لأول مرة بتسجيل ما يفعله وعرضه على الهواء في القنوات الفضائية، وكاد سامح أن يرفض لولا أن سيلين نظرت إليه مشجعةً فوافق على الفور وجهز أدواته الفنية استعدادًا للرسم، وبدأ الصحفيون والإعلاميون يستعدون بكاميراتهم لتسجيل هذه الأحداث الرائعة لواحد من أبرع الفنانين في العالم، واخذ سامح يفكر في موضوع اللوحة والجميع في الحفل ينظرون اليه بشغف وترقب .

وسأله أحد الصحفيين فجأة :

- هل حقًا كما وصل إلينا أنت ترسم الأشياء من وحي خيالك ويكون لها وجود في الواقع؟ وهل حدث هذا مع لوحة سيلين؟

وضج المكان بهتافات الحاضرين يتساءلون أيضًا فأكد لهم سامح أن هذا ما حدث معه بالفعل، فطالبه الجميع أن يفعل ذلك الآن أمام الجميع، فوافق سامح وهنا اقترب منه راعيه الملياردير سيزار مشجعًا له، وأخبره أن زوجته سوسن كانت تريد الحضور لرؤيته والتعرف عليه لكن المرض منعها، فنظر إليه سامح فجأة وقال له :

- أنا أرى زوجتك الآن في عقلي وأستطيع أن أرسمها.

وتعالت هتافات الدهشة والتعجب وعلق سيزار قائلًا :

- ولكنك لم تشاهدها من قبل في حياتك أبدًا.

- لكنني أراها الآن في عقلي ولأثبت لك سأرسم صورة لها.

وارتفعت الأصوات أعلى وأعلى من جموع الحاضرين بعد كلمات سامح الذي بدأ يرسم زوجة سيزار من وحي خياله، وسيزار ينظر إلى سامح حينًا وإلى اللوحة التي يرسمها حينًا آخر وعينيه تحمل نظرات متشككة.

*****

الفصل الحادي عشر

بعد ساعة من الرسم الذي كان وسط هذا الحضور الكبير من شخصيات كثيرة من مختلف الجنسيات والذي كان على الهواء مباشرة، انتهى سامح من لوحة السيدة زوجة الملياردير سيزار، والتي كانت مريضة في سريرها تتابع ما يحدث على شاشة التليفزيون، ونهضت فجأة من سريرها واقتربت من التليفزيون عندما ركزت الكاميرات على اللوحة التي رسمها سامح لها وراحت تنظر غير مصدقة وكأنها في حُلم، بينما كان سيزار يقف مذهولاً وهو يرى بنفسه موهبة سامح الخارقة للطبيعة الذي رسم زوجته وقال:

- مستحيل، مستحيل، إنها هي، إنها زوجتي سوسن.

وأسرع يخرج محفظته من جيبه ويخرج منها صورة فوتوجرافية لزوجته ويعرضها أمام الكاميرات التي أسرعت تلتقط لها آلاف الصور، وأحاط الجميع بسامح يهنئونه على موهبته الفريدة من نوعها، كان حفلًا لا مثيل له وحدثًا أغرب من الخيال يراه الملايين في كل الدنيا .

مضت الأيام بسامح بعد ذلك الحدث على خير ما يرام، وأصبح ضيفًا في كل البرامج التليفزيونية والقنوات الفضائية، وأصبح مدعوًا من كل بلاد العالم وصار كثير الأسفار هو وسيلين، يتنقلان في كل بلاد الدنيا بعدأان ذاع صيته، ولم يعد سامح يمر بلحظات رعب أو بأمورٍ غير عادية منذ أن دخلت سيلين في حياته باستثناء عيني القطة السوداء التي تحولت إلى عيني سيلين ولم تتغير، وكلما يراها سامح يجدها على نفس الوضع وخشى أن يخبر

سيلين بالأمر حتى لا يعكر صفو شملهما، ومع مرور الوقت على هذا النحو واحتفاء جميع الناس به. بدأ سامح يشعر أن الأمور صارت هادئة معه وابتعدت عنه شياطينه التي كانت ترعبه وبدأت نفسه تطمئن، خاصةً في وجود حبيبه قلبه في حياته والتي كان وجودها سببًا في شهرته؛ فهي جالبة حظه معها، وفي إحدى المرات وهو مع سيلين في باريس العاصمة الفرنسية، بعد أن انتهى من أحد معارضه الفنية وراح يتنزه مع سيلين، وبينما هي تلتقط له الصور عند برج إيفيل كانت هناك قطة سوداء تقف خلفه عند البرج دون أن ينتبه، حيث كان مرحًا جدًا ومتناسيًا أي شيء آخر، وكلما كان يغير وضعه لتلتقط له سيلين صورًا أخرى كانت القطة السوداء تتابعه في كل أوضاعه كأنها ظله، هنا ضاقت سيلين ذرعًا بها فراحت تشير إليها بيدها كي تبتعد عن مجال الكاميرا، فنظر سامح خلفه بدهشةٍ وانتفض عندما شاهد القطة السوداء الواقفة، فاقترب من سيلين قائلًا :

- هل قمتِ بتصويرها معي ؟

- نعم دون أن أقصد فهي كانت تلاحقك باستمرار.

- هيا بنا من هنا سوف نغادر.

- الأمر لا يستحق الغضب.

- أنا أتشائم من القطط السوداء، هيا بنا.

وعندما قام سامح باستخراج الصور من الكاميرا كانت المفاجأة؛ أن الصور خالية تمامًا من وجود القطة السوداء، فقام بإخفائها عن سيلين حتى لا ينتابها الخوف.

صباحًا في الفندق الباريسي الفخم الذي نزلا فيه قالت سيلين لسامح:

-لقد حلمت أننا ذهبنا إلى الأوبرا، ما رأيك أن نفعلها ؟

- تريدين أن نذهب الأوبرا ؟

- أجل، وتحديدًا التي رأيتها في الحُلم أوبرا (Palais Garnier)، أنا لم أدخل أوبرا من قبل، وهذه فرصة أن أدخلها معك، خاصةً والأوبرا التي حلمت بها عن رسام مثلك.

- حقًا؟ هذا أمرٌ عجيب، أنا لا أعرف أوبرا عن رسامٍ، ولكن كما تريدين، سأقوم بالاتصال الآن لنحجز فيها.

ولما أجرى سامح الاتصال بأوبرا (Palais Garnier) علم أن هناك عرض الليلة بالفعل، وأن الأوبرا التي ستعرض هي أوبرا أديلسون وسالفيني adelson e salvini للمؤلف الإيطالي فنشينزو بيليني، وقصتها عن الرسام سالفيني المغرم بنيلي خطيبة اللورد أديلسون، وتوتر سامح كثيرًا لما عرف هذه المعلومات وأخذ يتذكر اسم سالفيني الرسام الذي يبدأ بالحرفين الأولين من اسمه، ولاحظت عليه سيلين توتره فقالت له :

- ماذا بك يا حبيبي؟

- شيءٌ غريب، هناك بالفعل أوبرا ستعرض الليلة في دار أوبرا جارنييه عن رسام اسمه سالفيني.

صفقت سيلين بيديها في مرحٍ طفولي قائلة :

- إذن فقد تحقق حُلمي.

قالتها ثم تعلقت بعنقه في سرور ومرح، أما هو فقد أخذ يفكر فيها وفي الحُلم الذي رأته وتحقق، هل سيلين مثله تتنبأ بأمورٍ قبل حدوثها من خلال أحلامها؟ أم أن الظاهرة التي لديه في التنبؤ باللوحات هي التي أصابتها

بالعدوى؟ استقبل الناس استقبالًا حافلًا في قصر جارنييه سامح وسيلين، سامح في بدلته ال tuxedo الزرقاء الأنيقة بالصديري بحافتها السوداء الدائرية والبابيون الأسود، وسيلين بفستانها الأزرق اللامع الطويل، بديا كائنين أسطوريين هبطا من السماء، وأخذوا يلتقطون لهما ألاف الصور ويأخذون توقيعاتهما على الأوتوجرافات ويلقونهما بالأزهار، وهناك من طلب من سامح أن يرسم له بورتريه فلم يتردد سامح أمام هذا الحشد المليء بالحب من كل جانب، وأخذ يرسمه وبعض الحاضرين من رجال ونساء، بعد ذلك دخل مشبكًا ذراعه بذراع سيلين إلى داخل قاعة الأوبرا بصحبة مدير الأوبرا الذي رحب بهما كثيرًا وبدا مسرورًا بهما جدًا، وجلس بجوارهما هو وزوجته في الصف الأمامي، وجاء جلوس سامح على المقعد رقم ١٣ ، وبعد انتهاء العرض الذي كان مبهجًا اصطحبه مدير الأوبرا وزوجته هو وسيلين إلى مطعم الأوبرا لتناول العشاء، وأثناء تناوله للطعام أعطاه النادل ورقة مطوية دون أن يقول شيئًا، ففتحها ظانًا منه إنها من أحد المعجبين بفنه، وكانت فيها كلمات بالفرنسية كتبت بخط أنيق يبدو نسائيًا تقول انتظرني في المكتبة التوقيع سيلفيا، اندهش سامح من الرسالة الغامضة وخاصةً مع وجود التوقيع الذي لا يعرفه إذ أنه لا يعرف واحدة بهذا الاسم، وهي بتوقيعها على الرسالة تعني أنها تعرفه من قبل فاستاذن مدير الأوبرا وزوجته مدعيًا الذهاب إلى الحمام، ثم ابتسم لسيلين التي بادلته الابتسام وبدا أنها لم تنتبه لانشغاله بأمر الرسالة وصاحبتها المجهولة ونهض من مكانه متجهًا إلى مكتبة الأوبرا. لما دخل سامح المكتبة اندهش من خلوها من الرواد ومن صاحبة الرسالة المجهولة، ولكن نص الرسالة يطلب من سامح

الانتظار فأخذ يستعرض الكتب التي على الأرفف أمامه، واتجه إلى ناحية الرف الذي على اليسار وأخذ يتطلع إلى الأسماء المكتوبة على كعوب الكتب حتى قرأ اسم كتاب عن تاريخ الفن التشكيلي، فمد يده وتناوله ولما فتحه بحركة تلقائية على صفحة عشوائية، كانت الصفحة رقم ١٣ ولشدة دهشته وجد زهرة زرقاء جميلة مازالت رطبة تستقر بين صفحتي الكتاب وتفوح منها رائحة ساحرة لم يشم مثلها قط في حياته، وبدأ يحس أن روحه تنساب في المكان بحرية متخطية حاجز جسده، وظل على هذه الحالة لا يدري كم من الوقت حتى سمع صوتًا جميلًا يقول من خلفه :

- كنت واثقة أنك ستجد الزهرة .

التفت فوجد فتاة شقراء جميلة تبدو فرنسية من ملامحها وعينيها الزرقاوين، وترتدي ملابس الباليه ولها نفس عطر الزهرة الزرقاء فسارع بإعادة الزهرة الزرقاء داخل الكتاب، وأعاد الكتاب كما كان وأخذ يدقق النظر في وجه الفتاة قبل أن يقول:

- أشعر أني رأيتك من قبل.

كان يبدو في عيني الفتاة نظرة تعكس نفس الإحساس بالمعرفة المسبقة وقالت :

- أبناء الأرض الواحدة يلتقون دائمًا في كل مكان وزمان، أعجبه حديثها وشملها بنظرة فاحصة قبل أن يقول :

- أنتِ باليرينه؟

قالت :

- نعم، الباليه هو عشقي، أشعر حينما أرقص أن روحي تنساب خارجة من جسدي.

أعجبه حديثها أكثر فقال :

- لم أتشرف باسمك ؟

- سيلفيا.

- آه صاحبة الرسالة؟ أنا تحت أمرك، هل تقومين بعرض هنا ؟

راحت الفتاة تتحرك في المساحة الفارغة في المكتبة حركات راقصة من حركات الباليه، وسامح يتابعها ببصره شغوفًا بها وهي تقول أثناء رقصها :

- أنا أقيم هنا، هذه الأوبرا هي بيتي.

ضحك سامح قائلًا :

- إلى هذا الحد؟ شيء مدهش.

استمرت في رقصاتها وهي تقول :

- وأنت ؟ ماهو الشيء الذي يشعرك بحرية روحك وتخطيها حاجز جسدك ؟

- الرسم، حينما أرسم أشعر بهذا، أشعر أن روحي تتخطى كل الحدود.

استمرت الفتاة تتنقل في المكان برقصاتها مثل فراشة جميلة زاهية الألوان تتنقل من زهرة لزهرة فقال لها :

- أستطيع أن أرسمك إذا إردت.

قالت وهي مازالت ترقص ويرقص قلبه معها طربًا :

- حقًا ؟

- نعم.

وأسرع يخرج الإسكتش الصغير الذي يحتفظ به في جيب سترته الداخلي وأخرج قلمًا من أقلام الرسم، وأخذ يرسم سيلفيا وهي ترقص، كانت لحظة تغمره بالسعادة وهو يتابع هذه المخلوقة الجميلة التي تفيض بالحياة والرشاقة والجاذبية كأنها خارجة من لوحة من لوحات إدجار ديجا (edgar degas) الذي كان مغرمًا برسم الباليرينات، واندهش من هذه الازدواجية في المعنى المتناقض، كيف تذكره الحقيقة بالفن الخيالي، من كثرة أن أصبح الفن شيئًا أسطوريًا أصبح يضرب به المثل في الجمال ولكن أيكون الخيال أجمل من الواقع، أم أن الواقع هو الأجمل وهو الذي يستمد منه الخيال مادته ليحوله إلى شيء خيالي ساحر ليس له مثيل؟

وفجأة تناهى إلى مسامعه صوت بيانو يعزف لحنًا ساحرًا وبدا له أن سيلفيا ترقص على إيقاع موسيقى البيانو، وأراد أن يسألها من أين يأتي هذا الصوت، ولكنه صمت تمامًا واستمر في الحالة الجمالية التي ليس لها مثيل والتي غمرته تمامًا، ولما توقف صوت البيانو توقفت عن الرقص فارتفع صوت تصفيق سامح عاليًا، وأخذت سيلفيا تنحني أمامه محيية، ثم قالت وهي تمسك يده :

- والآن تعالى معي.
- إلى أين ؟
- سنذهب إلى سراديب الموتى سآخذك إلى نفسك.
- أتقصدين ذلك المكان تحت الأرض الذي أصبح مزارًا سياحيًا ؟
- هناك أماكن أخرى في سراديب الموتى لم يدخلها أحد من قبل.
- ولكن هذا مخيف.

- ألا تريد أن تأتي معي ؟

- حسنًا، ولكن كيف سندخل تلك الأماكن التي تقولين عنها ؟

- هناك أسفل هذا القصر سرداب سري يؤدي إلى سراديب الموتى الخفية المحظورة هيا بنا .

- وما معنى أنك ستأخذيني إلى نفسي ؟

- ستعرف عندما تأتي معي.

وبدون كلمة أخرى سارت الفتاة وسار سامح بجوارها ووجدها تتجه إلى ركن في أرضية المكتبة، ثم تنحني وتزيح جزءًا منها كاشفة عن فجوة عميقة في الأسفل وارتجف سامح، ولكن نظرة من الفتاة جعلته لا يفكر إلا في تتبعها وهي تنزل على درجات سلم في الفجوة وينزل خلفها، بمجرد أن أصبح سامح في الأسفل ومع الظلام المخيم على المكان ورائحة القبر التي تنبعث من كل ركن والبرودة التي تنخر في العظام كوحشٍ مفترس، أحس سامح أنه هبط إلى قاع الجحيم، وما أن أصبح في الأسفل حتى اختفت سيلفيا وتركته وحيدًا، فراح يتلفت حوله بجنون باحثًا عنها فلم يجد لها أي أثرٍ، ولما أراد أن يعود من حيث جاء لم يجد أثرًا للفجوة التي هبط منها وأصبح عليه أن يجتاز هذه الممرات المخيفة الممتدة أمامه بلا نهاية، وأدرك سامح أنه دخل في تجربة رعب جديدة، وأخذ يلعن نفسه على سقوطه في هذا الفخ المرعب كالغر الساذج، وأدرك أن الرعب هذه المرة يكمن في هذه الممرات الممتدة أمامه والتي ينبعث منها الظلام ورائحة الموتى والبرودة، إنه في الترقب المخيف في كل خطوة يخطوها والتي لا يعرف إلى أين ستقوده، وانطلق يجري في كل مكان باحثًا عن مخرجٍ، وبلغ به الفزع مبلغه وهو يجري

وتتلاحق أنفاسه ويشعر أن صدره يضيق مع انطباق ظلمة السراديب على صدره كأنها صخرة ضخمة، ويشعر أن السراديب تمتد أمامه إلى ما لا نهاية ولا يجد لها مخرجًا، وفجأة أصبحت الممرات أضيق وأحس سامح بالاختناق، وأخذ يسرع الجري عبر الممرات الضيقة إلى ممرات أخرى منخفضة جدًا الأمر الذي تطلب منه أن ينحني؛ لكي يتمكن من المرور، بعد ذلك أصبحت الممرات أكثر انخفاضًا ما أدى به إلى الزحف وهو يلعن حظه التعس الذي قاده إلى هذا الجحيم، وكلما تصور أن الأنفاق تنتهي يجدها تبدأ من جديد في دائرة متواصلة كأنه يدور في حلقة مفرغة. أخيرًا بعد فترة زمنية طويلة شاهد في أحد جدران الأنفاق (Arcosolium) تجويفًا به جثة، وعليها إكليل من نبات البيلسان Elder، ولما قرأ النقش الذي على حواف اللحد وجد أنه يشير إلى تاريخ ميلاده ٢٩ فبراير، وكذلك تاريخ الوفاه لكن السنين مطموسة، كل هذا لم يكن شيئًا بالمقارنة مع رؤيته لوجه الجثة، لما نظر إلى الوجه وجد وجهه هو، إن الجثة لرجلٍ يشبهه في الشكل والطول ونفس الهيئة، أراد أن يصرخ ولكن صوته انحبس داخل حنجرته فانطلق يركض متخبطًا في جدران الأنفاق وبداخله ينمو شعور أن كل ما مر به لوحة سريالية دخلها ولا يدري متى يخرج منها، وظل يركض ويتجاوز السراديب والأنفاق التي لا تنتهي وفجأة لاح له ضوءٌ فانطلق ناحيته بكل رغبة في التخلص من المتاهة التي سقط فيها، ووجد كل ما حوله يتحول إلى ألوان مختلطة، السراديب وجدرانها والأرض والسقوف تمامًا مثل ال (non visual –) في لوحات كاندنيسكي، ألوان مختلطة بلا معالم محددة ثم تلاشى كل شيء فجأة واختفت السراديب ليجد نفسه في حجرة قديمة بلا

أثاث وجدرانها متآكلة، وأحجار البناء تظهر منها وقبل أن يهم بفعل أي شيء سمع صوت مدير الأوبرا يقول :

- سيدي ماذا تفعل في هذه الغرفة؟ ممنوع الدخول إليها.

في مكتب مدير الأوبرا جلس سامح أمام مكتب المدير وهو في حالة ذهولٍ تام مما مر به، وراح المدير يتطلع إليه لحظات قبل أن يقول :

- سيد سامح، هل تخبرني الآن ما الذي حدث ؟ وكيف دخلت إلى الحجرة الممنوع دخولها ؟

تطلع إليه سامح لحظات دون أن ينطق ثم قال :

- لا أدري، أنا ذهبت إلى المكتبة بعد أن جاءتني رسالة من واحدة تدعى سيلفيا ودار بيننا حديث، ثم ذهبت معها إلى قبو تحت الأوبرا قادني إلى سراديب الموتى.

قال له المدير:

- سيد سامح، أنا في غاية الأسف لما حدث لك، لقد فضلت أن أنفرد بك وحدك في مكتبي دون علم زوجتك التي تركتها مع زوجتي؛ لكي أخبرك بأمرٍ غير طبيعي يتعلق بالأوبرا وهو سيفسر لك كل ما حدث.

ثم غادر مكان جلوسه خلف مكتبه الأنيق وجلس على الكرسي المواجه لكرسي سامح وقال:

- قليلون هم الذين يعرفون هذه القصة، قصة شبح الأوبرا سيلفيا الذي يظهر هنا، كانت باليرينا تقوم بعرض هنا هي وحبيبها عندما احترقت دار الأوبرا منذ مئة عامٍ واحترقا سويًا في الحجرة التي كنت فيها، حجرة

تغيير الملابس ومن يومها وهي تظهر في أوقات غير منتظمة والأغرب أن الأوبرا التي كانت تعرضها مع حبيبها هي أوبرا إديلسون وسالفيني.

هتف سامح :

- ولماذا ظهرت لي أنا بالذات ؟

قال المدير في حيرة:

- هذا هو اللغز الذي أعجز عن تفسيره.

- ولكن هذا مستحيل، مستحيل أن تكون شبحًا، لقد بدت طبيعية جدًا ومفعمة بالحياة.

- وماهي فكرتك عن الأشباح يا سيدي؟ إنهم أجساد هلامية، أو خيالات سوداء، أو أجسادهم شفافة كما يظهرون في الأفلام السينمائية؟ إنهم يبدون مثلي ومثلك وهم حولنا في كل مكان ونراهم يوميًا دون أن ندري حقيقتهم، إنهم يتصرفون مثلنا تمامًا وغالبًا لا يدركون أنهم أشباح ويتصرفون على أنهم بشر.

ظلت كلمات مدير الأوبرا الأخيرة تلك تتردد في عقل سامح بعد أن انصرف هو وسيلين وأصبحا في غرفتهما بالفندق صانعة فكرة راحت تتعاظم داخل عقله، أيكون هو شبح حبيب سيلفيا والذي كان يلعب دور سالفيني في الأوبرا عندما احترقت والذي رأى جثته في سراديب الموتى؟ خاصة عندما قالت له سيلفيا إنها ستأخذه إلى نفسه، وراقته الفكرة كثيرًا حتى سلبته الرغبة في النوم وهو في كل لحظة يتخيل نفسه شبحًا لرجلٍ ميت، ولكن كيف عاد بعد كل هذه السنين؟ وكيف أصبح سامح ؟ ولم يتخلص من تلك الأفكار إلا بعد أن غادر باريس بصحبة سيلين إلى إيطاليا،

وفي إيطاليا التي كان يعشقها سامح جدًا قام بتأجير قصرٍ في فينيسيا وأقام فيه مع سيلين يرسم ليل نهار وهي تقوم بمساعدته، وكان يحدثها كثيرًا عن عشقه لهذه المدينة وتاريخها وفنها وعشقه الكبير لعصر Renaissance العصر الذهبي للفن بمبدعيه جيوتو وليوناردو دافنشي، ورفاييل، ومايكل أنجيلو، وتتيان وساندرو، بوتشيلي وبقية المبدعين وكانت هي ترتوي قطرة قطرة من نهر سامح المشبع بفكره وثقافته وإبداعه. كان القصر أيضًا من طراز عصر الرينيسانس وفيه مدفأة كان سامح يقف أمامها يرسم وسيلين تساعده وتقوم بوضع الفحم في المدفأة، كان هذا يمنح سامح إحساسًا بالعصر التاريخي وبالدفء الذي يغذي إبداعه، وبينما كان مستغرقًا في إحدى المرات في الرسم أمام المدفأة لمح بشكل سريع سيلين وهي تضع يدها في النار بدلًا من الفحم المخصص لإشعاله، فتجمدت يده الممسكة بالفرشاة على اللوحة وتجمد هو في مكانه من المفاجأة المرعبة، واستمرت سيلين تضع يدها في نيران المدفأة كأنها تستمد منها طاقة معينة دون أن تحترق يدها على الإطلاق أو يحدث لها أي تأثر من لهيب النيران، وقبل أن يقوم سامح بأي رد فعل سوى انفعاله الداخلي، كان المشهد قد تغير أمام عينيه وأصبح لسيلين وهي تضع الفحم بشكل طبيعي جدًا في المدفأة، كيف حدثت له هذه الرؤية التي بدت حقيقية تمامًا؟ لكنه سرعان ما هز رأسه وكأنه ينفض عن نفسه المشهد المخيف الذي رآه، واستمر في الرسم ببراعته المعهودة.

وفي مرة قالت له له سيلين:

- كم أتمنى أن أنجب منك ابنًا يكون مثلك في كل شيء.

فقال لها مبتسمًا وهو يمسح على شعرها الأشقر الناعم الطويل ويغوص في عينيها الزرقاوين الصافيتين :

-أما أنا فأحب أن أنجب منكِ بنتًا تشبهكِ بالضبط .

ضحكت قائلة :

- حقًا؟

- نعم.

- وكيف تتخيلها ؟

- بنفس جمالكِ الأشقر وعينيكِ الزرقاوين العميقتين.

- هل تستطيع رسمها يا حبيبي ؟

- بالتأكيد يا حبيبتي.

- أريدك أن ترسمها في لوحة من لوحاتك الأسطورية، أريد أن أرى كيف سيكون شكل ابنتنا، إنه شيءٌ عظيم جدًا خاصة مع موهبتك الفريدة من نوعها.

- حسنًا، يا حبيبتي ولكن في أي مرحلة عمرية تريدين أن أرسمها؟

فكرت قليلًا ثم قالت : في العاشرة.

- وهو كذلك.

ونهض على الفور لإعداد أدواته الفنية وقامت سيلين بمساعدته وهي في قمة الحماس والمرح والفضول لرؤية موهبة سامح التي ستتفجر بعد قليل، وبعد ساعة بالضبط انتهى سامح من رسم لوحة بالحجم الطبيعي لبنت شقراء جميلة في العاشرة من عمرها، وأخذت سيلين تتأملها بكل حب وفرح وهي لا تصدق ثم قالت والدموع تملأ عينيها :

- لقد جعلتني أرى ابنتي قبل أن تولد، أنت أعظم عبقري في العالم.

ثم انتبهت فجأة إلى أن البنت الصغيرة لا تشبهها لكنها تشبه بشكل يكاد يطابق الأصل لوحة من لوحات فناني عصر الرينيسانس فالتفتت إليه قائلة:

هل لاحظت هذا ؟

- نعم، ولكن أؤكد لكِ أن هذه هي ابنتنا التي رأيتها في عقلي في سن العاشرة من عمرها، ربما أنت متأثر بجو إيطاليا وجو اللوحات التي رأيتها هنا، أن كل من سيراها سيؤكد أنها لواحد من فناني عصر الرينيسانس.

ومع فرحة سيلين وتعلقها باللوحة وفرح سامح أن يبدع صورة متخيلة لابنته المستقبلية نسي سامح تمامًا ما يحدث في لوحاته، نسي تمامًا أن لوحاته تتجسد.

*****

الفصل الثاني عشر

ظل سامح وسيلين يتجولان في المدن الإيطالية وسامح يعرض فنه التشكيلي الذي أبهر العالم، ويحضر معارض كبار الفنانين وجعل من القصر الذي يقيم فيه ملتقى خاصًا للفنانين والنقاد والمبدعين، وعلم الصحفيون العالميون بأمر رسم سامح لصورة تخيلية لابنته القادمة من سيلين، وكان هذا الخبر الجديد قنبلة جديدة في الأوساط الفنية والثقافية خاصةً مع اندهاش الكثيرين من متخصصي تاريخ الفن عندما لاحظوا التشابه الواضح بين لوحة ابنة سامح ولوحة فرانشيسكا ابنة الساحر الإيطالي ساندرو روزليني للرسام جورجيو بولدوني، وبدأت عصابة من عصابات المافيا الإيطالية تخطط لسرقة اللوحة في مدينة كاتانيا catania بجزيرة صقلية الإيطالية، جلس زعيم من زعماء إحدى منظمات المافيا جيوفاني بروفنزانو بصحبة رجاله يشرح لهم خطة الاستيلاء على اللوحة من الفيلا التي يقيم فيها سامح، ولما انتهى قال له مساعده وذراعه اليمنى:

-هذه العملية ستزيد من أرباح المنظمة بشكل خرافي وبقفزة واحدة أيها الزعيم، لقد كانت فكرتك في الاستيلاء على هذه اللوحة من أعظم الأفكار التي فكرت بها، وأكاد أجزم أن هذه العملية هي أعظم عملية ننفذها، فلقد تأكدت بنفسي من شهرة ذلك الرسام المصري الذي يعد بحق أبرع رسامي العالم في جميع العصور، وتكفي لوحة واحدة من أعماله لامتلاك مليارات الدولارات فيها.

ابتسم الزعيم قائلًا في غموض:

- ومن قال لك أن غرضي من سرقة اللوحة هو بغرض الكسب المادي؟

غمرت الدهشة الشديدة مساعده وهو ينظر إليه قائلًا:

وما هو الغرض إذن أيها الزعيم ؟

زادت ابتسامة الزعيم وزادت معها كلماته غموضًا وهو يقول:

ستعرف عندما ألتقي بالرسام المصري هنا في مقر المنظمة.

والتمعت عيناه ببريقٍ مخيف، بريق لم يره مساعده من قبل أبدًا.

تعرف سامح في إيطاليا على الكثير من الفنانين والمثقفين وكان كل تعامله معهم باللغة الإنجليزية؛ لأنه لا يعرف الإيطالية وبالطبع احترامًا له لم يكن أحدٌ يتحدث أمامه باللغة الإيطالية ولا حتى فيما بينهم، وكان قد ترك سيلين وحدها في القصر وذهب مدعوًا من بعض هؤلاء الفنانين لواحد من معارض اللوحات للفنان الإيطالي تتسيانو فيتشيليو زعيم مدرسة فينيسيا في الرسم، وهناك حدث معه موقف وضعه على قمة جبل الدهشة؛ كان سامح موليًا انتباهه لشرح بالإنجليزية للوحة معينة من أعمال تتسيانو عندما اقترب منه شخص إيطالي وسط الزحام، وهمس في أذنه باللغة الإيطالية قائلًا:

-خطيبتك محاصرة في داخل القصر إن لم تنفذ ما آمرك به قد تتعرض حياتها للخطر.

فهم سامح الكلمة على الفور رغم أنه لا يعرف اللغة الإيطالية، ولكن كيف؟ أهي قدرة خارقة للطبيعة كقدرته في الرسم؟

استسلم سامح تمامًا للشخص الذي حدثه وتركه يقوده خارج المعرض بعد أن اعتذر للحاضرين، إلى حيث سيارة تقف بالخارج فتح الرجل بابها الخلفي، ودعا سامح للدخول ليجد نفسه يجلس بجوار رجلٍ، ولما جلس الرجل الآخر الذي قاد سامح أصبح محاصرًا بينهما، وانطلق السائق بالسيارة مسرعًا، وصلت السيارة بسامح ومن معه إلى فيلا واستقبله فيها مجموعة من الرجال المسلحين بالمدافع الرشاشة، واقتادوه إلى بهو الفيلا حيث استقبله زعيم المنظمة جيوفاني وعلى نحو مفاجيء قال له :

- أهلًا بالفنان المصري، ألا تحب أن ترى ابنتك التي خرجت من اللوحة ؟

وهنا أدرك سامح ما يحدث له، وتذكر لوحة الطفلة التي رسمها لابنته كما تخيلها وأدرك أن الطفلة تجسدت خارج اللوحة، وصرخ في داخله :

-ابنتي، ابنتي بين أيدي هؤلاء المجرمين.

وصاح في وجه الزعيم بغضب غير مبالٍ بما يحيط به من أسلحة:

-أعيدوا لي ابنتي.

قال الزعيم :

- ليس قبل أن تعرف الغرض من إحضارك هنا، لن تتحرر ابنتك إلا إذا نفذت ما سآمرك به.

- ماذا تريدون مني ؟

- مادمت تعلم أن ابنتك التي كانت في اللوحة أصبحت حقيقية وأننا كشفنا سر قدرتك على رسم أشياء تتجسد، فسوف آمرك أن تستخدم سحرك هذا الذي تقوم به وترسم لي صورة.

- أنا لست ساحرًا.

- وهل هذا يشكل فارقًا ؟ سواء كنت ساحرًا أم غيره المهم أن لوحاتك تصنع التجسد لمن يرسم بداخلها وهذا هو ما أريده.

- ومن الذي تريد رسمه ؟

- أريدك أن ترسم صورة لزوجتي.

وصمت قليلًا وهو يخرج من جيبه صورة فوتوجرافية لامرأة إيطالية باهرة الجمال ناولها لسامح مستانفًا :

-زوجتي المتوفاة.

وارتفعت ضربات قلب سامح قبل أن يقول:

- أنت لا تفهم شيئًا، وأن الكيان الذي يتجسد لا يكون على حقيقته الطبيعية.

- هل سترسم الصورة أم لا ؟ تذكر ابنتك العزيزة في قبضة يدي.

- لن أرسم شيئًا إلا بعد أن أرى ابنتي.

- لك هذا أيها الساحر الملعون.

وأشار إلى أحد أتباعه أن يقتاد سامح إلى زنزانة الطفلة، وكانت المفاجأة للجميع عندما اختفت الطفلة المتجسدة من زنزانتها ومن اللوحة التي سرقها أفراد المنظمة.

صاح الزعيم :

- ما هذا العبث ؟ أين الفتاة ؟ تكلم أيها الساحر.

- قلت لك أنا لست ساحرًا، ألم أخبرك أن الكيان الذي يتجسد لا يكون على طبيعته.

- الطفلة تختفي أو تظهر ليس هذا من شأني، سترسم صورة زوجتي كما أمرتك، هيا.

رضخ سامح للأمر وأمسك أدوات الرسم والألوان التي أحضرها رجال الزعيم، وبدأ يرسم صورة الزوجة من الصورة الفوتوجرافية التي أعطاه إياها الزعيم، وبينما هو يرسم قال المساعد للزعيم :

- سنتخلص منه بعد ذلك أيها الزعيم أليس كذلك ؟

- كلا يا باولو سوف نتركه يذهب؛ فقد نحتاج إليه في إعادة إحياء أشخاص آخرين، سوف يظل تحت تهديدنا بشكلٍ مستمر، في المرة القادمة سوف تقومون بخطف خطيبته حتى يصبح رهن إشارتي، وارتفعت ضحكاته الشيطانية.

*****

الفصل الثالث عشر

انتهى سامح من رسم لوحة زوجة الزعيم بعد مُضي ساعة من الوقت، ووقف الزعيم أمام اللوحة مشدوها هو ورجاله وقطع عليهم سكونهم صوت أحد رجال الزعيم يقول:

- سيدي الزعيم، السيد جوزيبي يطلب مقابلتك.

أفاق الجميع من البرهة التي استغرقوها في سكونهم وذهولهم وقال الزعيم للرجل:

- دعه يدخل.

وما أن دخل جوزيبي وشاهد سامح حتى صاح في دهشة:

- مستحيل، الساحر ساندرو روزليني؟

والتفت الجميع إلى سامح والرجل يواصل كلامه قائلًا:

- ولكن هذا مستحيل، إن الساحر ساندرو مختفٍ في ظروف غامضة في قلعته المسماه ريكوردو recordo منذ عصر الرينيسانس.

هتف الزعيم:

- ألم أقل أنك ساحر أيها الرسام؟.

قال باولو مساعده:

- ولكن هذا مستحيل أيها الزعيم، كيف له أن يحيا كل هذا الزمن ؟

- ألا تعلم أن السحرة يعقدون اتفاقًا مع الشيطان وبموجبه يمنح لهم أعمارًا طويلة ؟

وأشار إلى سامح قائلاً :

- وها هو ذا ساحرنا يعود من جديد بهيئة مختلفة كأنه رسام.

كان أكثر من أصابته الدهشة في هذه الليلة هو سامح نفسه، هل هذه هي الحقيقية ؟ هل يتضح له أنه ساحر بالفعل وهو لا يدري؟ خاصة بعد أن رسم صورة ابنته التي أخبره البعض أنها فرانشيسكا ابنة الساحر، هل هذا هو سبب كل ما هو فيه من أحداثٍ غامضة وقدرة عجيبة.

*****

اقتاد رجال المنظمة سامح إلى خارج الفيلا، ولم يكد يمشي مبتعدًا حتى سمع صرخات مفزعة، كأنها صادرة من أعماق الجحيم وشاهد النيران تشتعل في جميع أرجاء الفيلا من الداخل والخارج، وكان مازال يفكر في الاكتشاف الأخير عن كونه الساحر، أيكون هذا الكائن الذي رسمه هو الشيطان الذي عقد معه الاتفاقية؟ وهو الذي أحضره من زمنه القديم إلى هذا الزمن الحديث ؟ قد تكون الحقيقة على قيد خطوات منه عندما يذهب إلى قلعة ريكوردو، إنه يفهم معنى هذه الكلمة الكاتالونية ، إنها تفيد التذكر أو استرجاع الأحداث المسجلة بالذاكرة قد تكون الكلمة رسالة له ليتذكر حقيقته؛ إن السر كله في القلعة ولابد أن يكشفه.

*****

فجأة وبينما سامح مازال واقفًا في مكانه يفكر في الذهاب إلى القلعة، برزت من وسط نيران الفيلا المحترقة ابنته التي رسمها ومعها زوجة الزعيم وانطلقا يركضان إلى قلعة بعيدة وبلا أدنى تردد انطلق سامح خلفهما يركض مسرعًا، كانت القلعة الغامضة في منطقة مهجورة تمامًا والرياح تشتد من حولها وتصفر بصوتٍ مرعب، تقدم سامح وسط الظلام وهو يرتجف وبمجرد أن دخل اصطدم بتابوتٍ ضخم وأثارت حركته هذه مجموعة من الخفافيش فأصدرت أصواتها التي تثير الذعر وهي تطير حول سامح الذي أخذ يخفي وجهه بيديه اتقاءً للخفافيش الكثيرة، وفي كل مكان شاهد كلمة ساخالافوس مكتوبة بالدم، وأخذ يفكر هل ياترى اقترب من معرفة الحقيقة؟ وهتف في قلب الظلام :

-لقد جئت إليك أيها الشيطان اللعين، أنا أريد أن أنهي عقدي معك، اتركني وشأني، أنا لا أتذكر أي شيء من هذا الاتفاق، لقد أصبحت شخصًا آخر.

كان صوته يتردد في أرجاء القلعة بصدى مفزع، ولما لم يجد ردًا على كلامه هتف ثانية:

-أين أنت أيها الشيطان اللعين؟ هيا اظهر وتحدث معي، أريد أن أنهي عقدي معك حتى لو كان الثمن موتي.

مرة أخرى لم يتلق ردًا، وفجأة أحس بيد تدفعه ليجد نفسه يصطدم مرة أخرى بالتابوت، وأخرج تليفونه الموبايل وعلى ضوئه أمسك غطاء التابوت المكتوب عليه اسم الساحر ساندرو روزليني وأخذ يقوم بتحريكه؛ ليفتحه حتى تمكن بعد مجهودٍ عنيف من فتحه، وشاهد جثة رجل شاحب

الوجه عليه زرقة الموت، يرتدي ملابس من عصر الرينيسانس، وكان الرجل نسخة طبق الأصل من سامح وقبل أن يتخذ سامح أي رد فعلٍ تحرك الرجل ناهضًا من التابوت، وانهار سامح تمامًا ودخل في غيبوبة.

*****

استفاق سامح على سرير في مستشفى إيطالية، ووجد أمامه سيلين وطبيبًا يقف بجواره بادره قائلًا:

- نشكر الرب على سلامتك أيها الفنان العظيم، لقد كان الكل في غاية القلق عليك، وعلى حالتك الصحية طوال فترة غيبوبتك التي استمرت أسبوعًا كاملًا .

عقد سامح حاجبيه بدهشة وأخذ يتلفت حوله ملقيًا نظراته على الكم الهائل من باقات الزهور التي تملأ غرفته، وارتمت سيلين على صدره تقبله فرحة وهي تقول:

- سامح، حبيبي، أنا في غاية السعادة أنك استرددت وعيك وأنك بخير، ألا تتذكر أي شيءٍ مما جعلك على هذه الحالة ؟

تكلم سامح ببطءٍ وبعض الوهن قائلًا:

- لا أتذكر سوى القلعة.

الطبيب: - أية قلعة يا سيدي؟

- قلعة ريكوردو.

مندهشًا:

-لا أعتقد أن هناك قلعة في إيطاليا كلها بهذا الاسم.

منفعلًا:

-من أين جئتم بي إذن ؟

- لقد وجدناك في منطقة المقابر التاريخية في ساعة متأخرة من الليل، عثر عليك الحارس المخصص لحراسة المقابر.

سيلين : ما الذي جعلك تذهب إلى هناك يا حبيبي ؟

- أؤكد لكِ يا سيلين أنني كنت في قلعة قديمة ولم أذهب إلى المقابر أبدًا.

الطبيب : من الواضح أنك تعرضت لصدمة عنيفة جعلتك تتوهم أشياء غير حقيقية، المهم أنك بخير الآن وتستطيع أن تغادر المستشفى، فرصة سعيدة أنني تعرفت على فنانٍ قدير مثلك.

وانصرف الطبيب تاركًا سامح يكاد يجن من الدهشة.

*****

بعد أن عاد سامح وسيلين من إيطاليا اتصل به مستر سيزار فزعًا، وطلب منه أن يحضر إليه فورًا لأمرٍ هام يتعلق بلوحة سيلين، ودق قلب سامح في خوفٍ شديد هل عاد الرعب من جديد ؟ وقالت له سيلين:

- أنت لم تسترح بعد من سفرك يا حبيبي، ما الذي يريده منك هذا الرجل؟ هل هذا وقت مناسب ؟

- لا بأس يا حبيبتي ، لابد أن أذهب، انتظريني لن أتأخر.

- حسنًا يا حبيبي، اذهب واحرص على نفسك.

ورغم تعب السفر هرع مسرعًا إلى قصر مستر سيزار الذي استقبله وقد بدا عليه الارتباك الشديد هو وزوجته التي قالت لسامح وهي تصافحه:

- سيد سامح، مرحبًا بك في قصرنا، شرفتنا، كنت أريد أن ألتقي بك في ظروف أفضل من هذه .

صافحها سامح وهو يقول :

- لماذا ؟ ماذا حدث ؟

قبل أن تجيبه المرأة أسرع سيزار يرد قائلًا:

- لوحة سيلين يا أستاذ سامح، حدث فيها شيء لن تصدقه عيناك عندما تراه .

وقبل أن ينطق سامح متسائلاً عما حدث للوحة أسرع سيزار يقول:

- أفضل أن ترى بنفسك ما حدث، لقد أصبح قصري مسكونًا بسبب هذه اللوحة، حتى الشياطين لم يتركوها لشأنها .

كاد سامح يموت فضولًا لمعرفة ما حدث للوحة ياترى، وقاده سيزار وزوجته إلى الغرفة الكبيرة الفخمة جدًا في الدور العلوي والتي بها اللوحة ونظم الأمن والحراسة، ودخل سامح وقلبه يرتجف ليرى اللوحة، ولم يكد ينظر حتى اتسعت عيناه برعبٍ هو أضعاف أضعاف ما مر به من رعب؛ شيء مذهل عبث شيطاني ولا شك، أو سحر من وراء الطبيعة كانت لوحة سيلين كما رسمها سامح ليس بها أي تغيير سوى العينين، كانت العينان عيني القطة السوداء .

*****

هنا تذكر سامح لوحة القطة وكيف تحولت إلى عيني سيلين في أول يوم التقى فيه بها أمر عجيب، ثم ها هي لوحة سيلين تصبح بعيني القطة، هذا يعني أن سيلين لها علاقة بالأمر ولكن كيف؟ هل هذا يعني أن سيلين هي القطة والقطة هي سيلين؟ لقد اعتاد أن تتنبأ لوحاته بأمور مستقبلية فهل هذه نبوءة جديدة ؟ ولكن هل من المعقول أن تكون سيلين الإنسانة التي عشقها شبحًا أو مخلوقًا من العالم السفلي ؟ هل من المعقول أن تكون إنسانة جسدها يسكنه الشياطين ؟.

وقطع استرسال أفكاره المخيفة وتساؤلاته صوت سيزار قائلًا:

- أين ذهبت يا فنان؟

- لا شيء، كنت أفكر فيما حدث.

قالت الزوجة : لن نسكن بعد الآن في هذا القصر سوف نغادره.

سيزار: أجل ولكن علينا أولًا أن نتخلص من هذه اللوحة الملعونة، ما رأيك يا سامح ؟

سامح وهو في شروده وأفكاره : أجل.

سيزار: إذن ماذا نفعل معها في رأيك ؟

سامح : أفضل حل هو إحراقها.

ضحك سيزار ضحكة عالية وشاركته زوجته، وأحس سامح مع ضحكاتهما بالخوف منهما لا يدري لماذا، وعاد سيزار يقول:

- هل تعتقد أن إحراقها سيأتي بنتيجة ؟ أن الجان مخلوقون من النار أليس كذلك ؟!

وأحس سامح فجأة كأن الرجل وزوجته هما المخلوقان من الجان، ولاحظ ملاحظة مخيفة كان هو الوحيد الذي يظهر ظله على جدار من جدران الغرفة ولا يوجد ظل لسيزار وزوجته، وبرغم رعبه الشديد من هذه الملاحظة إلا أنه لم يظهر أية انفعالات على وجهه وقرر أن يعتبر نفسه يتخيل من كثرة رعبه فمن غير المعقول أن يكون هناك شيء في الرجل وزوجته، ثم لاحظ سامح ملاحظة أخرى أكثر رعبًا، شيء جديد تمامًا لاحظه في اللوحة من كثرة تحديقه فيها ولكن في انعكاس اللوحة في المرآة التي كانت في الخلف؛ كان انعكاس اللوحة يظهرها في المرآة الكبيرة التي في الغرفة ولكن بشيء مختلف، لمح سامح في المرآة اسم ساخالاڤوس على اللوحة مكان توقيعه باسمه، وراح سامح يوزع نظره بين اللوحة وانعكاسها في المرآة، واقترب مدققًا في اللوحة ليجد توقيعه كما هو، ولكن عندما ينظر إلى المرآة يجد اسم ساخالاڤوس بدلًا من اسمه، وقال لنفسه: من غير المعقول أن يكون هذا تخيل، إنها رسالة موجهة لي، لا يعلم أحد عن ساخالاڤوس شيئًا إلا أنا، هذا يعني أن هذه ليست لوحتي وإنما لوحة ساخالاڤوس، أي أنها لوحة من العالم السفلي، وبالتالي هذا يعني أيضًا أن سيلين تنتمي إلى العالم السفلي أو ربما تكون ساخالاڤوس، نعم لقد فسر اللغز الآن سيلين ليست سوى جنية، لم يعد هناك شك في هذا .

وهنا دخل سليم قائلًا لسيزار: عذرًا مستر سيزار.

سيزار: ماذا هناك يا سليم ؟

ارتسمت على وجه سليم تعبيرات الخوف والاضطراب وهو ينقل بصره بين سامح وسيزار، ثم قال : لقد خُطفت سيلين يا سامح .

هتف سامح :

-ماذا تقول ؟! غير معقول، متى وكيف حدث هذا ؟ ومن الذي خطفها ؟

سليم : كنت ذاهبًا لزيارتك في الڤيلا عندما لاحظت آثار عنف، وكأن معركة دارت في الڤيلا كلها وذلك بعد أن وجدت الباب مكسورًا فدخلت لأطمئن، وعرفت أنها خُطفت من الورقة التي تركتها العصابة والتي يقولون فيها أنهم يريدون لوحة سيلين مقابل الإفراج عنها وإلا سيكون مصير سيلين مظلمًا.

وسكت سليم مخرجًا الورقة من جيبه وناولها لسامح الذي خطفها وراح يقرأ كل ما فيها ثم أخذها سيزار ونظر فيها، وتبخرت استنتاجات سامح بشأن حقيقة طبيعة سيلين في الهواء؛ إذ أنها مادامت خُطفت فهي إنسانة عادية وليست من الجن؛ لأنها لو جنية لما تعرضت لاختطاف من البشر.

وعاد سليم يقول: ماذا ستفعل يا سامح ؟

- وهل هذا سؤال ؟ سنسلم لهم اللوحة فورًا.

قال له سيزار: - هل نسيت ما حدث للوحة ؟

قالها مشيرًا إلى اللوحة التي انتبه لها سليم لأول مرة منذ أن دخل وشاهد عيني القطة السوداء بدلا من عيني سيلين فصاح بكل دهشة:

- يا شياطين الجحيم، ما هذا الذي أرى ؟

سيزار: أنا الذي أسألك الآن، ماذا ستفعل يا سامح، اللوحة لم تعد تصلح لمبادلتها بسيلين.

قال سامح بهدوء: هل نسيت يا مستر سيزار أنني أنا الذي رسم اللوحة ؟ وهذا يعني أن في إمكاني إعادة رسمها من جديد بحيث تكون نسخة طبق الأصل من اللوحة التي أصابها العبث الشيطاني.

سيزار: ومتى تبدأ في رسمها ؟

- سأبدأ الآن .

*****

قرب الموعد المتفق عليه مع العصابة حضر سامح ومعه النسخة الثانية من لوحة سيلين، والتي أنجزها سريعًا وإن كان هذا لم يمنعه من إتقانها وحضر معه مستر سيزار وسليم ومجموعة الأصدقاء، وظل الكل يترقب وصول مندوب العصابة الذي سيأخذ اللوحة، ثم يستلمون سيلين بعد ذلك بدقائق عندما تفرج عنها العصابة وتأتي وحدها بعد أن يغادر مندوب العصابة كما في الخطة، وهكذا ظل الكل ينتظر وهم غارقون في التوتر والقلق والدقائق تمر ببطءٍ ممل حتى حان الموعد المتفق عليه، وظهرت سيارة سوداء أمامهم أدركوا أنها سيارة مندوب العصابة فاتجه إليها سامح وهو يحمل اللوحة، وفتح مندوب العصابة زجاج السيارة وخاطب سامح قائلًا :

- هل أحضرت اللوحة ؟

مد له سامح يده باللوحة فأخذها المندوب وأسرع يعطيها لرجلٍ يجلس بجواره في المقعد الأمامي من السيارة، ملامحه أوروبية ،ويرتدي نظارة سوداء تخفي وجهه فأخذها وراح يفحصها جيدًا، ثم أشار للمندوب بإبهامه علامة الجودة أي أن اللوحة هي المطلوبة، ونظر المندوب لسامح وقال له :

- سوف تحضر خطيبتك بعد قليل.

وانطلق بعد كلمته بالسيارة كأنه يركب صاروخًا، ومضت بضع دقائق ظهرت بعدها سيلين تقود سيارتها حتى وصلت إليهم وأسرع سامح إليها بكل لهفة وحنين وشوق، فغادرت السيارة على الفور وارتمت بين أحضانه فضمها إليه وحولهما الجميع يحيطون بهما .

*****

الفصل الرابع عشر

عاد سامح مع سيلين إلى ڤيلته وجلسا سويًا دون أن يتكلما في أي شيءٍ ولا حتى فيما حدث لها وماذا فعلت مع العصابة وأين كانت، كل هذا لم يكن يعني سامح ليسأل عنه، كل ما يهمه أن سيلين عادت إليه وهي الآن تجلس معه، وبعد برهة قال لها :

- لن أتركك لحظة واحدة وحدك منذ الآن يا حبيبتي.

- وأنا لن أفارقك لحظة واحدة يا حبيبي.

- سوف تبيتين هنا معي لن أتركِ تذهبين ڤيلتك . –

حسنًا، يا حبيبي كما تريد.

- سوف تنامين في غرفتي بالدور العلوي، هيا اصعدي لتغيري ملابسكِ، وأنا سوف آخذ (شاور) وآتي لك نتعشى سويًا.

أومأت برأسها وهي تبتسم ثم صعدت إلى الدور العلوي، وقام سامح فدخل الحمام وأمسك فرشاة الأسنان وظل واقفًا أمام المرآة يحدق في وجهه لحظات، وفجأة اختفى انعكاسه من المرآة وأصبحت المرآة خالية تمامًا كأنه غير موجود، جن جنون سامح وراح يخبط زجاج المرآة بيديه وينظر أكثر وهو لا يصدق عينيه كيف اختفى، وقبل أن يتخذ أي فعلٍ ظهر انعكاس في المرآة التي كانت خالية؛ انعكاس وجه، وجه أزرق مخيف يطل عليه من المرآة كأنه يطل عليه من نافذة، فتراجع سامح للوراء بعد أن فوجيء بهذا الوجه المرعب الشيطاني الذي رسمته يداه وجر عليه سلسلة

الرعب هو ولوحة القطة، وعادت المرآة تخلو من أي انعكاس ثم عادت تعكس وجه سامح، فتنفس بعمق وابتلع ريقه وأسرع يغادر الحمام مسرعًا.

ظل يهديء نفسه وينظم تنفسه المضطرب حتى هدأ، فدخل المطبخ حيث أعد العشاء لسيلين وحمله صاعدًا إلى الدور العلوي وطرق الباب قبل أن يدخل فقالت سيلين: تفضل يا حبيبي.

ودخل مقدمًا لها العشاء وهو يبتسم قائلًا: العشاء يا حبيبتي.

ووضعه على السرير وبينما هو منحنى هكذا قريبًا منها لاحظ شيئًا يراه لأول مرة على كتفها الأيسر؛ فهو لاحظ ذلك لأنها كانت ترتدي قميص نوم أزرق بلا أكمام ولهذا شاهد هذا الشيء كان وشمًا مدقوقًا على كتفها، وكان واضحًا أنه وشم يمثل قطة سوداء، وأحس بالرعب وهو ينظر إلى سيلين التي كانت تأكل بنهمٍ شديد ثم قالت:

- عندي فكرة مدهشة تخلصنا من هذا الجو الكئيب وتنسينا الموقف الذي حدث.

قالتها وهي تنظر إليه كأنها تنومه مغناطيسيًا بعينيها فغاص في العينين وهو يقول: هاتِ ما عندكِ.

– ما رأيك أن نذهب سويًا في نزهة إلى الإسكندرية ؟ إن عندي شاليه على البحر، لماذا لا نقضي فيه بضعه أيام تنسينا ما مر بنا ؟

- فكرة رائعة يا حبيبتي .

- حسنًا، غدًا نجهز أنفسنا للرحلة. وغاص سامح في عينيها أكثر وأكثر.

*****

قضى سامح مع سيلين أسعد الأوقات في الشاليه على البحر في الإسكندرية، وكانت دهشة سامح وسعادته كبيرتين عندما اكتشف أن الشاليه في بقعة نائية على البحر وأنهما بعيدين عن الأنظار تمامًا كأنهما على جزيرة منعزلة فقالت له سيلين:

- ما رأيك في هذا المكان الساحر؟ إن البحر فيه ملك لنا وحدنا لا يشاركنا فيه أحد.

قال : وكيف عرفت هذا المكان النائي ؟

سيلين ضاحكة: سر المهنة، ها ما رأيك ؟

ضحك بدوره وقال: هذا المكان حقيقة يصلح ليكون ساحة لجريمة لا يكتشفها أحد، إنه مكان مثالي لهذا.

سيلين بغضبٍ مرح : هكذا ؟

وراحت تضربه بيديها عابثة وهو يضحك ويقول : كنت أمزح معكِ.

قالت وهي تنظر إلى البحر: بماذا تشعر وأنت أمام البحر؟

قال وهو ينظر إلى البحر وأمواجه بدوره : أشعر بالانتماء.

ابتسمت في فرحٍ عندما قال هذا وسألته : حقًا ؟

- أجل، ربما السر في مياهه الزرقاء ؛ لأنني أعشق اللون الأزرق كما تعلمين، كما أن البحر يجمع ما بين متناقضات، ففيه السحر، والجمال، والغموض، والرهبة، والخوف، والمتعة.

- يقولون أن أسفل البحر بركان يؤدي إلى العالم السفلي.

- هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها هذا.

قالت بغموضٍ عجيب: هذا ما سمعته، يقولون أن البحر هو البوابة التي تؤدي إلى مملكة الجان.

- قد يكون في كلامك بعض الحقيقة، فلقد سمعت عن أساطير جنية البحر وعن جان يسكنون في مياهه.

وابتسم وهو يغوص في عينيها التي بدت أمامه بحر عميق قبل أن يقول:

- تعرفين أنك مثل جنية البحر، لقد خطفتِ قلبي وعقلي.

ضحكت سيلين في سعادة حقيقية وقالت بغموض وهي تنظر في عينيه بعمقٍ : إذن أنت على الطريق الصحيح .

واستسلم سامح لنظراتها التي تسكره تماما، وعند الغروب جلسا سويًا على البلاج يستمتعان بمنظر غروب الشمس، المشهد المعروف لسقوط الشمس في مياه البحر، وكان بالنسبة لسامح من أروع المشاهد الطبيعية الجميلة، وكان معه أدوات الرسم فراح يستغلها في تسجيل هذه اللحظة الانطباعية وقالت له سيلين: سأتركك لتنهي لوحتك وأدخل لتجهيز العشاء.

وبينما بقي سامح يرسم المنظر الطبيعي فوجيء بشيء يظهر أمامه في مياه البحر من بعيد، وأراد أن يتأكد من حقيقة هذا الشيء الغامض فنادى سيلين لترى معه هذا الشيء، ولكنه لم يتلق منها أي ردٍ، وحيث كان يجلس بكرسي البلاج موليًا ظهره للشاليه فاستدار ليوصل صوته إلى سيلين، وما أن التفت حتى ارتجف، لقد اختفى الشاليه تمامًا والشاليهات التي كانت بجواره وأصبحت البقعة التي كان يجلس فيها على البحر خالية

تمامًا. وانحبس صوته داخل حنجرته وأصيب برعشةٍ شديدة وهو يجد نفسه على هذا النحو من الفراغ المحيط به، وكان الشيء الغامض يتقدم منه ببطءٍ عبر مياه البحر، فوجد نفسه بلا وعي ينزل مياه البحر متجهًا إلى ذلك الشيء، وشيئا فشيئا بدأ يغوص في مياه البحر حتى مستوى صدره فراح يعوم ليقترب من الشيء المجهول الذي كان يقترب منه بدوره، حتى التقى الاثنان في نقطة داخل البحر ورأى سامح الشيء الغريب؛ كانت لوحة كبيرة تعوم منتصبة كأنها شراع عملاق دون سفينة وفي اللوحة كان الوجه الأزرق، وكما حدث له من قبل عندما كاد يغرق في حمام السباحة شاهد أحب وجه يتمنى أن يراه في هذا الوقت، وجه سحر تقفز خلفه في مياه البحر، وأظلمت الدنيا بعدها في وجهه وغاص في مياه البحر.

*****

الخاتمة

لما استفاق سامح من إغمائه وجد نفسه في سريره بغرفة نومه بالقيلا، كان كل شيء حوله هادئًا وكان الوقت نهارًا فقال لنفسه : ياألله، هل كان كل هذا كابوسًا مرعبًا ؟ أنا لا أصدق كل ما مر بي من هلوسة وأنا نائم.

ونهض من سريره وهو يشعر بالنشاط، وبدا سعيدًا عندما أدرك أنه كان في حُلمٍ كابوسي وانتهى منه أخيرًا باستيقاظه، وبدا خفيفًا رشيقًا كأن حملًا ثقيلًا أزيل من على كتفيه، وراح يغير ملابسه وهو يصفر في سعادة وأحس أنه يريد أن يضم الشوارع ويقبل الطرقات والناس، كان مبتهجًا لاكتشافه أنه استيقظ أخيرًا من كابوسٍ مرعب ظنه حقيقة لا فرار منها، وأدرك أن كل هذا حدث له بسبب رسمه للوحة القطة السوداء اللعينة، مما تسبب له بعدها في رؤيته لهذا الكابوس الذي كان فيه، ومع الارتياح النفسي العميق الذي انتابه بعد استيقاظه هذا عرف أنه تحرر أخيرًا من الوهم الذي كان أسيره، وقرر أن لا تكون موضوعاته في الرسم لها صلة بأي شيءٍ مرعب، سيبتعد عن أي شيءٍ يثير رعبه حتى لا يتكرر مثل هذا الكابوس الذي كان درسًا قاسيًا له، لن يرسم بعد ذلك إلا كل ما هو جميل ويفيض بالحياة والوداعة، إن رسم الجمال وتخليده في الفن واللوحات هو الأثر الباقي الذي يدوم ويديم الجمال والرقة والبهاء والصفاء النفسي والروحي في الحياة .

وبدأ يحسد نفسه على جماليات الحياة والطبيعة الإنسانية وأن الجمال في كل ما حولنا ومن حولنا، ولكن لا ننتبه له وهو ما كان بحاجة

إليه ليسجله في لوحاته لا موضوعات مرعبة تجر عليه أهوالًا كابوسية بغيضة، حتى أن الجمال ينبع من أنفسنا، وفي كل لحظة تمر علينا نفيض جمالًا إنسانيًا ونحن لا نشعر ولا نقدر ما في أنفسنا من جمال، كل هذا بدأ يدركه سامح لأول مرة ويلوم نفسه ألف مرة؛ لأنه ضيع على نفسه لحظات الجمال بهذا الكابوس، وهكذا انتهت واحدة من أكثر الرحلات الكابوسية التي مر بها سامح، وقال لنفسه بعد أن تأنق:"هيا يا سامح، اخرج واستمتع بحياتك وبإنسانيتك وبكل ما هو جميل، إنسانيتك هي نبع الجمال والإحساس والاستمتاع به ".

وأسرع ينزل درجات سلم الدور العلوي، ولم يكد ينهي آخر درجة ويصبح في صالة الڤيلا حتى اتسعت عيناه ولم يعد قادرًا على التقاط أنفاسه؛ لقد كان يظن أنه في حُلمٍ كابوسي واستيقظ منه على خير فإذا به يجد الكابوس يتجسد أمامه من جديد وبكل من كانوا فيه؛ كان يجلس في الصالة سحر، ومجموعة الأصدقاء، ومستر سيزار، وساندي فتاة الديسكو، وسيلفيا شبح الأوبرا، وسيلين، إذن لم يكن ما مر به كابوسًا وإنما واقعٌ مرعب مازال يعيش فيه، ووقفت سيلين بلهفة واتجهت إليه قائلة: هل عدت لحقيقتك يا حبيبي؟

- حقيقتي ؟ أية حقيقة ؟ أنا لا أفهم شيئًا.

هزت سيلين رأسها بأسفٍ لحاله وهي تنظر للجميع.

سيلين مشيرة إليهم : دعونا وحدنا.

ولم تكد تنطق بكلمتها حتى اختفى جميع من في المكان ولم يبق إلا سيلين، تبخر الجميع في الهواء كأنهم سحروا فزاد اتساع عيني سامح وقال:

- ما هذا ؟ هل أنت ساحرة، أم جنية، أم ماذا بالضبط ؟

- سأخبرك بكل شيء، فقد آن الآوان أن أضع الRetouche الأخيرة .

نظر لها سامح وصاح: هيا تكلمي.

- حبيبي، انظر إليّ جيدًا، أنت لست من تتصوره، هيا تذكر معي حقيقة نفسك؛ أنت لست سامح أنت ساخالاڤوس.

صرخ فيها: ما هذا الكلام الفارغ أهي لعبة جديدة ؟ كفى مزاحًا يا سيلين.

- أنا لا أمزح هذه هي الحقيقة، أنت ساخالاڤوس، مخلوق من العالم السفلي، من عشائر الجن وأنا زوجتك، ونحن جميعًا من الجن الأزرق، نحن فرقة من العالم السفلي، فرقة من الجحيم، جئنا إلى الأرض في مهمة سرية تدميرية على الأرض بتكليف من مولانا عزازيل.

وتذكر سامح على الفور اسم عزازيل إنه اسم إبليس، وأكملت : ونحن الفرقة ١٣ وأنت كنت العنصر الثالث عشر في الفرقة، ولكنك فقدت الذاكرة قبل أن نقوم بالمهمة المكلفين بها، ولما فقدت الذاكرة أصبحت تتصور أنك بشرٌ لا من الجن الأزرق، ولأننا لدينا القدرة على أن نتشكل في أي جسدٍ حدث لك عندما فقدت الذاكرة وأنت بجسدٍ بشري صرت تتصور أنك بشرٌ وتحيا كأنك بشر ناسيًا تمامًا حقيقة جنسك الأصلي.

صاح فيها : أنا بشر، هذه هي طبيعتي وكل كلامك هُراء.

- لابد أن ترجع لطبيعتك يا ساخالاڤوس حتى نبدأ مهمتنا، لقد قمنا بخطتنا معك ورحنا نصنع لك كل الحيل التي كنت تراها من تحول اللوحات والأمور الشيطانية؛ حتى ترجع لطبيعتك بالتدريج وتسترد ذاكرتك

المفقودة، أرجع يا حبيبي لصوابك، لا مفر من أن تعيش حقيقتك، أنت من نسلنا ووجودك عنصر أساسي في تنفيذ مهمتنا وبدونك نحن متعطلون.

- حتى لو كنتِ تقولين الصدق، أنا اخترت أن أكون إنسانًا وطريقكم غير طريقي.

قالها واتجه ناحية الباب مغادرًا فصرخت فيه:

- لن تستطيع التخلص منا مهما حاولت، حتى لو بقيت بشريًا فنحن نحيط بالبشر من كل جانب وفي كل وقت، سنظل معك مهما تحولت إلى أي عنصرٍ آخر غير حقيقتك يا ساخالاقوس، إن كل اختياراتك للون الأزرق ولون عينيك تؤكد أنك مازلت تنتمي إلى جنسنا الجن الأزرق وإنك ستعود إلى حقيقتك مهما طال الزمن.

واستمر ساخالاقوس يمشي مبتعدًا عنها حتى غادر الڤيلا، وظل يمشي ويمشي وهو لا يصدق أن يتضح له في النهاية كونه مخلوق من الجن الأزرق، وتذكر عشقه للون الأزرق، هذا هو السبب إذن، لكنه اختار أن يكون إنسانًا كما أخبر سيلين. ظل يسير على غير هدى حتى وجد نفسه أمام معرض من معارض اللوحات الفنية فدخل وهو في قمة الاندهاش والتعجب أن وصل إلى هذا المكان وأدرك أنها لابد حيلة جديدة من فرقة الجحيم التي كان منها، وشاهد بين رواد المعرض فتاة ذات شعر أسود جميل مسترسل على ظهرها تقف أمام لوحة من اللوحات مرسوم بها قطة سوداء تشاهدها باستغراق كامل، ولما اقترب منها وجدها سيلين وقد اختفى شعرها الأشقر وأصبح أسود فصاح:

- أنتِ ثانية ؟ قلت لكِ ابتعدي عني .

فالتفتت إليه الفتاة بدهشة وقالت:

- ماذا هناك ؟ من أنت ؟ هل أعرفك من قبل ؟

- كفاك لعبًا يا سيلين.

- سيلين من أيها الشاب ؟ أنا اسمي سالي.

- ماذا تقولين ؟

- نعم يا سيدي، أؤكد لك أنني سالي طالبة في كلية الفنون الجميلة.

أحس ساخالاڤوس أنها تقول الصدق فقال معتذرًا :

- أنا آسف يا آنسة، سامحيني، لقد تصورتك واحدة أخرى أعرفها .

- ما هي حكايتك بالضبط ؟

- لن تصدقي، ولكن سوف أخبرك.

وراح يروي لها كل حكايته منذ أن بدأت حتى الآن وهي تنظر إليه في تعجب ودهشة وخوف حتى انتهى فقالت:

- لست أدري ماذا أقول لك، أشعر أنك صادق في كل كلمة ولكن لا أستطيع أن أصدق مسألة كونك من الجان، هذا مستحيل.

كانت الفتاة تحمل بعض أدوات الرسم وبينها قاطع من الذي يستخدم في تقطيع الأوراق فالتقطه ساخالاڤوس منها وأمسكه ثم مد يده به إليها قائلًا:

- أريدك أن تتأكدي الآن.

- ماذا تعني، وكيف تريدني أن أتأكد ؟

- قومي بجرحي بهذا القاطع، فإذا نزل دم أكون بشرًا، أريد أن أتأكد من حقيقتي أنا أيضًا.

وتناولت سالي القاطع ومد هو إليها إصبعه السبابة للأمام، ووقفت الفتاة حائرة ما بين خوفها ودهشتها، ثم حسمت الأمر وجرحت إصبعه وسالت الدماء منه على الأرض، وظلت تسيل وتسيل حتى تحولت إلى بركة من الدماء، ظلت تتحول وتتشكل من اللون الأحمر إلى البرتقالي إلى الأزرق، حتى ظهر منها وجه لونه أزرق راح يتشكل ويتشكل ويتكون تدريجيًا على الأرض.

النهاية

بورتريه قطة سوداء

كان موقفاً مرعباً بكل المقاييس، القطةُ تسلّطُ عينيها المرعبتين على سامح الذي وقف متجمداً من فرط الرعب كأنه نُوِّمَ مغناطيسياً من عيني القطة، وبدأ يشعر أن الفيلا بكل محتوياتها تدور به، وظن لوهلة أنه في وهم كبير، فصك عينيه، وعاود النظر من جديد .. كانت القطةُ مازالت واقفة تنظرُ إليه، وخطرَ له خاطرٌ سريع .. مدّ يده التي كانت قريبةً من حامل الرسم، ورفع الغطاءَ عن لوحة القطة التي كان قد رسمها منذ قليل وزاد رعبه، وازداد الموقف كله رعباً عندما نظر إلى اللوحة فلم يجد القطةَ بها، كانت اللوحةُ فارغةً تماماً كأنه لم يرسمْ عليها أيَّ شيء، وترنح سامح في مكانه ..

ما هذا الذي يحدثُ له ؟

وما تفسيرُ هذا الرعب الذي يعيشُ فيه الآن ؟

السيد الجندي

تصميم الغلاف: فارس إيهاب

اسكرايب

آفاق للكتاب